IRIS AperTO

UNIVERSITÀ DEGLI STUDI DI TORINO

AperTO - Archivio Istituzionale Open Access dell'Università di Torino

سميائيات الأصولية الدينية

This is a pre print version of the following article:

Original Citation:

Availability:

This version is available http://hdl.handle.net/2318/1522455 since 2015-08-05T06:14:42Z

Publisher:

Dar Konoz

Terms of use:

Open Access

Anyone can freely access the full text of works made available as "Open Access". Works made available under a Creative Commons license can be used according to the terms and conditions of said license. Use of all other works requires consent of the right holder (author or publisher) if not exempted from copyright protection by the applicable law.

(Article begins on next page)

20 April 2024

ماسيمو ليوني

سميائيات الأصولية الدينية

خطاباتها، بلاغتها وقوتها الإقناعية

ترجمة وتقديم وتعليق

عبد الله بريمي

ماسيمو ليوني

سميائيات الأصولية الدينية

خطاباتها، بلاغتها وقوتها الإقناعية

ترجمة وتقديم وتعليق

عبد اللّه بريمي

كنوز المعرفة

الطبعة الأولى
1437هـ - 2016م

العنوان الأصلي للكتاب

Massimo LEONE
SÉMIOTIQUE
DU FONDAMENTALISME
RELIGIEUX

MESSAGES, RHÉTORIQUE, FORCE PERSUASIVE

First Edition 2016

ماسيمو ليوني/ سميائيات الأصولية الدينية: خطاباتها، بلاغتها وقوتها الإقناعية

رقم الإيداع: ????

الردمك :?????

حقوق النشر محفوظة

دار كنوز المعرفة العلمية للنشر والتوزيع

الأردن – عمان – وسط البلد – شارع الملك حسين

تلفون: 4655877 6 962+ – فاكس: 4655875 6 962+

موبايل: 5525494 79 962+ –ص. ب 712577 عمان

الموقع الإلكتروني: www.darkonoz.com

إيميل: info@darkonoz.com – dar_konoz@yahoo.com

جميع الحقوق محفوظة، لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه أو استنساخه أو نقله، كلياً أو جزئيا، في أي شكل وبأي وسيلة، سواء بطريقة إلكترونية أو آلية، بما في ذلك الاستنساخ الفوتوغرافي، أو التسجيل أو استخدام أي نظام من نظم تخزين المعلومات واسترجاعها، دون الحصول على إذن خطي مسبق من الناشر.

Copyright © All Rights Reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

شكــر خاص

أتوجه بالشكر الخالص إلى الأستاذ ماسيمو ليوني الذي سمح لي بترجمة كتابه. لقد أفدت كثيرا من كتاباته في مجال السميائيات، كما أفدت من أفكاره عندما كاتبته لأستفسره عن بعض المفاهيم الموظفة في النص الأصلي. فبدون توضيحاته التي قدمها لي ما كنت لأنجز هذه الترجمة في صورتها الحالية، فله مني كل الاحترام والتقدير.

شكــر

أتقدم بجزيل الشكر إلى الأستاذ خويا العمري العلوي أستاذ الآداب الفرنسي بالكلية المتعددة التخصصات الرشيدية، الذي قرأ معي هذه الترجمة وقوم اعوجاجاتها، ففضله على هذه الترجمة كبير.

مقدمة المترجم

تصدر الترجمة العربية لكتاب ***سميائيات الأصولية الدينية*** لمؤلفه الإيطالي **ماسيمو ليوني في طبعته الأولى سنة 2014**، في لحظة تاريخية فارقة ومهمة يحتل فيها التيار الأصولي صدارة المشهد العربي والدولي. فتنظيم الدولة الإسلامية في العراق والشام الذي يحشد العالم في مواجهته جيوشاً وأساطيل، هو آخر سلالة أنتجها التيار الأصولي الجهادي، أحد أبرز تيارات الأصولية المعاصرة، وأكثرها تطرفاً ودموية. كما تزامنت هذه الترجمة كذلك مع أحداث تفجيرات مسجد الإمام الصادق بالكويت والأحداث الإرهابية التي عرفتها مدينة سوسة التونسية وفرنسا وسيناء المصرية والتي أودت، بحياة عشرات الأشخاص وإصابة آخرين.

وفي هذا الإطار، نقدم لقراء العربية ترجمة واحد من أهم الكتب التي تناولت ظاهرة الأصولية الدينية في عصرنا الحاضر من حيث تاريخها ومفهومها وخطاباتها وصيغ تداولها في مجتمعاتنا المعاصرة وطرق إقناعها، يتعلق الأمر بكتاب ***سميائيات الأصولية الدينية خطاباتها وبلاغتها وقوتها الإقناعية***. وما يميز هذا الكتاب عن غيره من الأعمال التي تناولت الظاهرة سواء في بعدها التاريخي أو الاجتماعي أو النفسي أو السياسي أو الاقتصادي أو حتى الحقوقي، هو المقاربة الجديدة التي اعتمدها صاحبه والمتمثلة في السميائيات وتحديدا السميائيات التوليدية (غريماص وهيلمسليف) والتأويلية والثقافية (إيكو بورس) وسميائيات الكون (يوري لوتمان)، اعتمادا على مرجعياتها النظرية سواء من حيث أسسها المعرفية الناظمة لتصوراتها، أو من حيث القوة التجريبية لنماذجها الإجرائية التي تسعى لتحليل التفاعلات بين الأنساق الثقافية، والتي تؤكد على أن الثقافة ذاكرة غير موروثة للجماعة، وتلتحم فيها الممارسات الفردية والممارسات الجماعية. فالبناء السميائي للثقافة هو نسق من القواعد السميائية التي تتحول بها تجربة الحياة اليومية إلى نموذج. وإن الوظيفة الأساسية للثقافة هي التنظيم المشكِّل للكون المحيط بالكائن

البشري. ويصطلح على هذا الكون في أدبيات يوري لوتمان، تحديدا، كونا سميائيا يشتغل بناء على معطيات الذاكرة الجماعية، ويجعل الحياة ممكنة خارج بعدها النفعي والبيولوجي وهو ما يعني امتلاك أفراد جماعة بشرية ما، داخل نسق ثقافي محدد خطاطة للكون أو خارطة طريق من شأنها إظهار بنية العلاقات التي تربط هذه المجموعات بالمحيط المصاغ سميائيا، والتي تلعب فيه اللغة دورا محوريا في صياغة وتنميط هذا الكون.

إن النموذج النظري الذي اعتمده ماسيمو ليوني في مقاربة خطاب الظاهرة الأصولية الدينية غاية في الدقة والتجريد، فهو يرتبط تصوريا مع مجموعة من المفاهيم المتقاطعة، مما جعل إمكانية استثماره أثناء التحليل أمرا مهما خاصة وأن هذا النموذج السميائي يعدّ صيغة للتحليل الشمولي للأنساق الثقافية وإضاءة للمبادئ البنيوية للسميوزيس، وعبره نستطيع الانتقال من التحليل الثابت والمحايث إلى التحليل الدينامي، إنه فضاء لتوليد المعنى.

لقد خلق لنا هذا النموذج حوار نظريا، وذلك بهدف رصده للآليات الإقناعية والأشكال البلاغية المتنوعة والمتعددة التي تعتمدها الأصوليات الدينية في تصريف مواقفها وإيديولوجياتها التي تلبس لبوس الدين من أجل السيطرة على العقول الشابة، وكيف تتحول هذه العقول في رمشة عين إلى عقول أصولية متطرفة في منازلها وأمام شاشات حواسيبها دون عناء، مستغلة بكيفية متحمسة حداثة هذه الوسائل التقنية، ولكن لكي تحارب تكنولوجيا وإيديولوجيا الحداثة التي ما انفكت، هذه الأصوليات الدينية، وما فتئت تشكك في منظومة قيمها. ولم تكتف الأصولية الدينية بهذا التشكيك، بل لقد سعت إلى رفض كل المفاهيم الحديثة حول الدولة ومسألة تداول السلطة وحق المجموعات في المشاركة في الحكم بصرف النظر عن دينها وجنسها، وتكريس الحقوق السياسية والإنسانية في الحرية والعدالة والمساواة أمام القانون، وهي مبادئ أتت بها التطورات السياسية الحديثة بعد نضال قادته شعوب متعددة وكرسته في منظومة حقوق الإنسان والمواطن تحت عنوان تحقيق الديمقراطية وحق الشعوب في الوصول إلى إنجازاتها. ويأتي هذا الرفض تطابقًا مع التمسك بأفكار الماضي واعتباره المقياس الذي يجب أن يقوم عليه الحاضر فكرًا وممارسة مع تغييب كل مظاهر التحول الزمني. إن الحلم المثالي لهذه الأصوليات ليس إيقاف التاريخ وأحداثه فقط، بل هو، بشكل خاص، شلّ الحرية

التأويلية لجماعة دينية ما، وتعدّ هذه النقطة الأكثر خطورة في الخطاب الأصولي المعاصر، خاصة عندما يتعلق الأمر بقراءة النصوص الدينية. فالأصولي الديني، هاهنا، هو أقوى حامل للعنف؛ فما إنْ يتيقّن أن فكرته هي وحدَها الفكرة الصحيحة حتى يجيز لنفسه الادعاء بأنه وحده يمتلك الحقيقة، فيقتنع بأن الله قد أوكل إليه مهمة الدفاع عنها، وبذلك لا يأخذ على عاتقه واجب تكفير من يخالفه الرأي وحسب، بل وواجب قتاله أيضًا. إن الأصولي الديني العنيف، يعمل دون كلل، أيضا، على بلورة المعنى عبر أفعاله: وعندما يستحيل الإقناع يلجأ إلى القوة. ولتفعيل هذا الإقناع، لجأت الأصوليات الدينية إلى خلق استراتيجيات خطابية للسيطرة على الأغلبية العظمي من الشباب تبدّت في توظيفها للخطاب الديني في صيغته البسيطة والمختزلة، وهو خطاب ينبني في جوهره على خلق التنافر والمعاداة والتناقض تجاه الخطاب المعاصر والحداثي. ويتمثّل هذا الخطاب هويته وشرعيته من الفتاوى التي تبيح العنف والقتل، بهدف إخضاع رغبة المجتمع الحداثي في التطور للرجوع إلى الوراء عن طريق الترهيب والتقتيل، واستعمال كل أنواع الانتقام الأشدّ كراهية. وسواء اختارت هذه الأصوليات اليهود والمسيحيين والمسلمين وغيرهم، هدفا لعدوانيتها، فإن ما يهم فيها ليس هو الهوية العرقية أو الدينية للأعداء الذين تواجههم، ولكن في الحقيقة لأن لديها عدوا ينبغي مهاجمته، عدو يجسد مبدأ الغيرية يقوض وينسف مصدر رزق هذه الأصوليات.

إن السميائي، مع ذلك، لا يشتغل فقط بطريقة استنباطية، انطلاقا من التحليل المجرد للمعجم الأصولي وحقوله الدلالية، ولكن أيضا بطريقة استقرائية، عبر الملاحظة المنهجية للواقع الاجتماعي. وما يمكن للسميائيات أن تقدمه، أيضا، لدراسة هذه الظاهرة لا يكمن في تحليل الأسباب التي كانت وراء دفع المئات من الشباب للانضمام إلى معركة جهادية.إن السميائيات، بالمقابل يجب، أن تقترح قراءة للآليات الإقناعية التي كانت أولا وراء استقطاب وغواية وجذب هؤلاء الشباب إلى كون تأثير الأصولية الإسلامية تحديدا، وكيف اقتنعوا أيضا بالتخلي عن كل شيء للمخاطرة بحياتهم باسم الجهاد. لذلك فقد كان منطلق مؤلف هذا الكتاب بارزا وصريحا، حيث يدرك أن الزعيم أو القائد الأصولي الديني، لا يمكنه البتة الوصول إلى هذه عقول هؤلاء الشباب، والزّج بهم في غياهب مصير الفتك والتدمير والإبادة بكل معانيها، والدفع بهم إلى الانخراط في تنظيمات متطرفة

واستئصالية إلا إذا كان عارفا ملمّا بكل تفاصيل وحيثيات حيوات هؤلاء الشباب: النفسية والاجتماعية والمهنية والثقافية التي تكشف عن وضعهم وانتماءاتهم الطبقية. وتعدّ هذه التفاصيل غاية في الدقة والأهمية، تساعد الزعيم الأصولي وحاشيته على بلورة خطاب بلاغي لفظي أو سمعي بصري، تكون الغاية منه إبراز خصائص الأصولية بوصفها «مقترحا لشكل الحياة». إن هذا الخطاب يمتلك قوة إقناعية فائقة، في التعبير عن نفسه دون كلل، مثلما هو الحال عليه في الخطاب الدعائي الإشهاري. فإذا كان الخطاب الإشهاري يمنح هوية و يسعى إلى الحصول على لذة عبر سراب أو وهم الحرية. فإن الخطاب الأصولي يشيد الانتماء ويحث ويحرض على السعادة عبر وهم الحاجة.

إن الأساسي في الانتماء للتنظيم الأصولي الديني ليس هو فقط الظفر «بالشهادة» بوصفها حلما وقيمة متعالية، بل العوالم التي تغلّف بها هذه «بالشهادة»، وما يؤثث هذه العوالم من قيم رمزية واستعارية تتسرب بطريقة واعية أو لا واعية إلى عقل هذا الأصولي الديني. إن هذه العوالم جزء لا يتجزأ من كون أو ثقافة يبرمج وفقها هذا الأصولي سلوكه، استعداد منه للانضمام لهذه الجماعة المتطرفة أو تلك. إن هذا ما يدفعه للقتال أو الانتحار بتفجير نفسه اعتقادا منه أنه بذلك يصنع فارقا! وهذا ما يشير إلى مفارقة غريبة في تاريخ تحكم هذه التنظيمات بكل أشكالها، في سلوك الأتباع وترويضهم وتوجيههم وفق غايات نفعية غير معلنة تخدم مصالحهم ولا علاقة بما هو ديني. إن المعنى الذي يُسنَد لقيمة «الشهادة» أو ما يناظرها من القيم المتعالية، لا يمكن أن يدرك بصورة فعلية إلا من خلال تحقق هذه القيم وتجسيدها في أدوار أو وظائف داخل تنظيمات ومؤسسات تخرج هذه القيم من تجريديتها وتمنحها وجها محققا، وذلك بإعطائها مضمونا وصبّها في وعاء يتم من خلاله تحديد السياق أو التلوينات الثقافية التي تخصص هذه القيم وتخرجها من لا زمنيتها المطلقة إلى زمن ومكان محددين: إنه زمن ومكان «الاستشهاد». ويتبوّأ الفضاء في هذا النموذج السميائي أهمية استثنائية، بل حاسمة لتمثيل العالم الخاص لثقافة هذا الأصولي، فبانغماسه الدائم في فضاء ثقافي ما، يخلق دائما حول نفسه كونا فضائيا منظما.

إن هذا التحول من المجرد «الشهادة» إلى المحقق «الاستشهاد» داخل فضاء جغرافي ما، هو تحول لا يتم عن طريق الصدفة، بل هو تحول محكوم باستراتيجية تنظر إلى الدلالة بوصفها سيرورة سميائية وتداولية يتحكم فيها محفِلا الإنتاج والتلقي؛ أي كيف ينتج

زعماء هذه التنظيمات المعنى وكيف يتلقاه الأتباع. إنها استراتيجية تتعلق بما هو خطابي، أي بنحوٍ لتوليد المعنى واستثماره في وقائع ملموسة دالة. يتعلق الأمر بتعريف المجموعة وارتباطها بعدو يلزم محوه وإبادته من جهة، وتعريف الفرد في ارتباطه بفكرة «الشهادة» من جهة أخرى، وهو تعريف وجودي متطرف يتحيّن عبر تحويل الفرد وغسل دماغه والانفصال التام عن الأسرة الأصل والهجرة إلى «أرض الجهاد» والانضمام إلى «أسرة» أصولية جديدة ثم عبر القتال والبحث عن موت بطولي. إن ما تقدمه الأصوليات، رغم ذلك، باعتباره خطابا للتعالي، ليس، في الغالب، سوى بلاغة تخفي بُعدَ الاستغلال والهيمنة وبناء السلطة وتسلسلها الهرمي.

إن الوصول إلى أي جماعة، حيث كل تجلّ أو ظهور لها يكون باهتا إلى حد التخلص منها؛ يصنع كائنا بشريا لا يمكن أن يكون سوى ناقل سلبي لتقليد أو تراث ديني يمكن النظر إليه هو الآخر باعتباره ناقلا ساكنا للتعالي: إن هذا ليس مجرد حلم، بل هو بلاغة لها مفاهيمها وآليات اشتغالها. فعندما نحلل بنية السلطة التحكمية داخل الجماعات الأصولية، بما فيها السلطة الجوهرية للتواصل داخل الجماعة وخارجها، فإننا نلاحظ على الفور بأن آثار إيديولوجية التجلي تبقى مترسبة في نمط حياة وعيش الأصولي وغالبا ما تشغل مكانة أساسية لديه. فالجماعات الأصولية، في كل الأديان، ليست جماعات دون زعيم، على العكس من ذلك، إن العناصر الفاعلة، يمكن التعرف عليهم داخل التنظيم انطلاقا من الأدوار التي تسند إليهم بوصفهم زعماء رأي وأمناء على التقليد الحقيقي، بما فيهم القادة العسكريون عندما يتعلق الأمر بجماعة في ميدان القتال. إن هؤلاء الزعماء يختارون ويتخذون قرارات وينتقون ويحددون المناسب من الخيارات ويؤولونها. ومع ذلك فإن قوة الإقناع لديهم ترتكز على موهبة خارقة وكاريزما لا تعتمد على بلاغة التجلي، بل على بلاغة التكرار على حدّ رأي ماسيمو ليوني: فكل ما قام به الزعيم، وقاله، وأمر به يُقدم لا بوصفه خيارا ولكن بوصفه نتيجة منطقية لمسار المعنى الذي يحدث مباشرة دون بدائل ممكنة للتعالي.

إن مقاربة الظاهرة الأصولية من منظور سميائي يحمل في ذاته مزايا متعددة نجمل بعضها فيما يلي: ففي المقام الأول، تجعلنا السميائيات نتعرّف على النواة الوجودية للأصولية وتحديدها بكيفية دقيقة منفصلة عن الخطاب الديني الخاص الذي تلْبَسه.

وبعبارات أخرى، يسمح لنا التعريف السميائي المجرد للأصولية بالتعرّف كذلك على بنيتها العميقة، أي إيجاد طريقة للنظر وتشخيص المعنى الذي يوجد في كل العقائد الدينية وحتى الذي يوجد فيما وراءها. إن الأصولية هي رد فعل على الحداثة المتطرفة لأنها تعبير جوهري عن يوطوبيا الحتمية المطلقة وعن بشرية تحاول أن تتجنب عبء الاختيار، وعن عدم اليقين في الحرية. إن هذا المقاربة تسمح لنا كذلك، بمعرفة الاقتضاء والشرط الأنثربولوجي للأصولية، الذي يعدّ بدوره شرطا ضروريا لفهم قوتها الإقناعية: فإذا كانت الأصوليات الدينية قادرة على استقطاب الناس وتحويلهم إلى مرتدّين بشكل متزايد، فلأنها تمنح للأفراد شكلا للحياة، لم تستطع معها المجتمعات الغربية والعربية القدرة على اقتراح ما يلبّي الحاجيات الأنثربولوجية العميقة للبشرية.

إن الطريقة الوحيدة لتقويض السلطة الإقناعية للأصوليات، لا يمكن أن تكون إلا عبر تفعيل سلسة من الإجراءات الاجتماعية والثقافية التي تهدف إلى تغيير المنظورات الوجودية للمراهقين في المجتمعات الغربية والعربية على حدّ سواء.

عبد الله بريمي

مقدمة خاصة بالترجمة العربية

تلقيت ببالغ السرور الترجمة العربية لكتابي *سميائيات الأصولية الدينية* التي قام بها الزميل عبد الله بريمي أستاذ السميائيات والتأويليات بجامعة «مولاي إسماعيل» مكناس، الكلية المتعددة التخصصات الرشيدية، المغرب.

من جهة، من طبيعة الإنسان أن يشعر بمتعة عندما يرى فكره وكلامه منتشِر داخل لغة مختلفة. ومن جهة أخرى، تشكل اللغة، العربية، التي ظهرت بها هذه الترجمة الجديدة، مزيدا من التحفيز والرّضا، ولكن أيضا مزيدا من التفكير. إن الديانة الإسلامية اليوم، وكذا، العربية، لغة نصّها المرجعي يشكلان معا إيحاء أكثر شُبهة في «العالم الغربي». وكأن بين هذه الديانة وهذه اللغة من جهة، والعنف باسم هذه الديانة وداخل هذه اللغة المنتشرة في العالم من جهة أخرى، هناك علاقة جوهرية، لا انفصام لها. إننا اليوم، عندما نتحدث مع غير المتخصصين في أوروبا، ونعلن لهم دراسة بلاغة الأصولية الدينية، فإن السؤال الذي يُطرح هو السؤال نفسه دائما وهو: هل تتكلمون العربية؟ وهل تقرؤونها؟

إن واحدة من بين نتائج هذا الكتاب الذي نقدمه هنا للنسخة العربية هي إظهار، عبر الأدوات السميائية، أن الأصولية الدينية لا تتطابق ضمنيا مع ديانة أو لغة ما؛ إنها تتبع، على العكس، ما اصطلح السميائيون على تسميته «شكل حياة ما» أو، بصيغة أفضل، «إيديولوجيا سميائية»، أي طريقة لإعطاء معنى للحياة. إن الأصولي، وهذه هي أطروحة الكتاب الأساسية، ينتمي إلى *إيديولوجيا سميائيات التكرار*، وحُلمه المثالي هو إيقاف ليس فقط التاريخ وأحداثه، بل هو، بشكل خاص، شلّ الحرية التأويلية لجماعة دينية ما. إن الأصولي الديني العنيف، يعمل دون كلل، أيضا، على بلورة المعنى عبر أفعاله: وعندما يستحيل الإقناع يلجأ إلى القوة.

إن حكومات العالم بأسره، الذين يتساءلون في الوقت الحاضر عن الطريقة المثلى لإظهار هذا العنف التأويلي والجسدي، سوف لن يصلوا أبدا إلى أيّ حلّ إذا هُم استمروا

في الاعتقاد بأن مصدر هذه الإيديولوجيا السميائية هو شيء يجب البحث عنه في الدين أو في لغة ما. وعلى العكس من ذلك، إن الدين واللغة ليسا سوى موردين أو وعاءين رمزيين، تتم تعبئتهما، وغالبا ما يُساء استعمالهما، لتلبية غريزة أنثربولوجية أعمّ من ذلك بكثير. وتظهر هذه الغريزة مرارا وتكرارا في التاريخ، في رحم لغات وديات مختلفة، وفي جدلية عنيفة أحيانا مع *الإيديولوجية السميائية للبروز*. ووفقا لهذه الأخيرة، التي تتعارض مع الأولى، فإن المعنى لا ينبثق من تكرار، أو من طقس، أو من تقليد ما، بل من ابتكار ومن تغيير أو حتى من فصله عن الأصل.

إن هذه الجدلية بين إيديولوجيا التكرار وإيديولوجيا البروز كانت موجودة دائما وربما ستبقى إلى الأبد. إن الشيء الجديد في هذه النسخة الحالية يتمثّل، أولا، في الوسائل التكنولوجية التي تقوم بتنفيذها. فهناك البلايين من النصوص المتداولة في الشبكات الاجتماعية تشكل اليوم الحلَبة الأساسية التي تسعى من خلالها الإيديولوجية الأصولية الدينية وعنفها للبحث والعثور عن أتباع. وثانيا، فإن جدّة هذه الظاهرة تكمن أيضا في حقيقة احتضانها بكيفية متحمسة حداثة هذه الوسائل التقنية، ولكن لكي تشكك في إيديولوجية الحداثة. إن الآلاف من الشباب الأوروبيين، والعديد منهم لا تربطه صلة بالثقافة العربية الإسلامية، قرروا الانضمام إلى مقاولة العنف للدولة الإسلامية. لماذا يفعلون ذلك؟ إن سبب ذلك يجب البحث عنه ليس فقط في رفض لغة أو ثقافة ما، بل في رفض إيديولوجية المعنى وفي إرادة إعطاء معنى لحياتهم ولحياة جماعتهم عبر استراتيجية جديدة وجذرية تماما، تتمثّل في التخلي عن كلّ ما هو حرية واختيار وتداول بما في ذلك الأفكار الحديثة والشاملة للمسار المهني والحب الرومانسي والديمقراطية. إن الشاب الأصولي اليوم يحلم بعالم خال من الاختيار، حيث كل تعريف يمنح بثبات ودون اعتراض من القراءة الواحدة المقبولة للنص الواحد المقدس المقبول.

إن عدم فهم الأهمية الوجودية لهذا الحلم معناه إقبار كل مبادرة تهدف إلى الحدّ أو تقويض الدعاية الأصولية العنيفة. إن المعركة التي ينبغي توظيفها ضد هذا الصنف الإيديولوجي ليست، في الواقع، عسكرية، بل، هي قبل كل شيء، سميائية. لذا ينبغي أن نفهم الأسباب الوجودية للأصولية العنيفة بإظهار جذورها في مدارات الحداثة، وربما عبر الإشارة إلى طريق جديد لأولئك الذين ينخرطون، اليوم، في مسار الظلامية والعنف.

يجب أن نظهر في نهاية المطاف، بأنه يمكننا العودة إلى الأصول الروحانية دون العثور، بالضرورة، على ما يدمّر الإنسان، بل العكس، نكشف عن كلام التحرر الذي وعدت به كل الأديان. إن البحث عن الإنسانية في أصول الدين: إن هذه بالذات هي الوصفة التي يلزم اتباعها لنزع فتيل أيّ تأويل عنيف عن المقدس.

ماسيمو ليوني

شكـــــر

أودّ أن أُعرب عن شكري وتقديري لمجلس بلدية باريس الذي تفضل بإعطائي منحة بحث لمدة ستة أشهر، مكنتني من مسايرة مشاريعي البحثية في المنطقة الباريسية ومستفيدا من ظروف العمل المثالية. لقد كانت هذه الأشهر الستة هي الأكثر إنتاجا والحاسمة فكريا في مسيرتي الجامعية. كما أودّ أن أعبر عن امتناني وتقديري لزملائي الباحثين المشهود لهم بالكفاءة العلمية الذين دعموا ترشيحي ورحبوا بي إبان إقامتي في باريس والذين لم يبخلوا علي ولم يتوانوا باستمرار في إسداء النصح والتوجيه المتعلق بأنشطة البحث في باريس؛ أخصّ بالذكر السيدة آن هينولت، أستاذة السميائيات في السربون، والسيد دوني برتراند، أستاذ السميائيات في جامعة باريس ثمانية فانسين بسان دوني. ولولا دعمهما المعنوي ما كان لبحثي المقترح غضون ترشيحي أنذاك أن يبلغ مداه الأنسب. أخيرا، أغتنم هذه الفرصة لأوجه شكري لكل المؤسسات، ومراكز البحث والخزانات والإدارات التي كان لدي معها اتصال خلال تلك الأشهر الستة، والتي أعانتني بسخاء وفعالية؛ كما أوجه شكري، على الخصوص، لمجلس مدينة باريس العلمي ولرئيسته السيدة إليزابيت جياكوبينو، وزائره الدائم السيد جين لويس ميسيكا مساعد العمدة المكلف بالجامعات والبحث والابتكار؛ ولمكتب البحث والدعم الجامعي لمجلس بلدية باريس ولرئيسه السيد لوران كانديل؛ وللسيدة (مغالي باستيي) القائمة على مديرية المرافقة للنقل الدولي التابعة للحي الجامعي الدولي في باريس؛ ولفريق البحث المستقبل في «المعنى والنص والإعلاميات والتاريخ» (ف. م. 4509 باريس السربون) في وحدة تكوينه (علوم النص الحديث من القرن السادس عشر إلى القرن الواحد والعشرين) التابع (لقسم الدكتوراه ق.د.5 («مفاهيم ولغات») ولمديرته السيدة جويل ديكوس، ولكل المساعدين على البحث في مكتبة فرنسا الوطنية.

أسئلة الانطلاق وصعوبات التطور

يطرح هذا الكتاب سؤالا بسيطا ومركبا في الوقت نفسه وهو: كيف نجحت الأصولية في إقناع الأفراد، خاصة من هم في سنّ الشباب، بتبنّي رؤيتها للعالَم، والالتزام بنشرها، والانخراط لنصرتها سياسيا واجتماعيا وثقافيا، والدفاع باستماتة كبيرة من أجل قراراتها، حتى وإن كانت تتعارض مع قوانين الدولة عبر القول والفعل العنيفين؟

إن أول صعوبة، جوهرية، يواجهها هذا البحث تتمثل في إظهار أن الأصولية ليست موضوعا اجتماعيا واضحا ودقيق المعالم، بل هي بدلا من ذلك، كلمة يُطابقها تعريف دلالي متغير، وتختلف هذه الدلالة حسب مجالات التداول الاجتماعي للمعنى، والتي تتطور بسرعة مع مرور الوقت وارتباطا مع أحداث الحياة السياسية الوطنية والدولية. ومع ذلك فإن فهم حدود هذه الدلالة أمر لا غنى عنه للتحكم في موضوع البحث وفي تحري الدقّة حول ما يترتب عليها من آثار في الواقع الاجتماعي: فماذا نقصد اليوم «بالأصولية»؟ وما هي التمثّلات المعرفية والانفعالات والمقاصد التداولية التي تُثار في مختلف الأوساط الاجتماعية عندما يستعمل هذا المصطلح؟

إن السميائي، مع ذلك، لا يشتغل فقط بطريقة استنباطية، انطلاقا من التحليل المجرد للمعجم وحقوله الدلالية، ولكن أيضا بطريقة استقرائية، عبر الملاحظة المنهجية للواقع الاجتماعي. هل يمكننا إذن أن نفهم خصائص الأصولية بوصفها «مقترحا لشكل الحياة» أو باعتبارها «رؤية كونية» [1] لها صلة وثيقة ومحددة بمواقف نفسية واجتماعية؟

1-ترجمة للمصطلح الفلسفي الألماني Weltanschauung يقوم المفهوم في أساسه على دراسة مجموع الأفكار التي يعتنقها أحد أفراد المجتمع عن ذاته وعن الآخرين وعن العالم الذي يعيش فيه. وبتعبير آخر، فإن مفهوم رؤية كونية أو رؤية العالم هي الطريقة التي ينظر بها شخص ما أو جماعة ما إلى الكون ككل والتي يرون من خلالها هذا الكون. ومن معاني الرؤية الكونية أنها عبارة عن (مجموعة من المعتقدات و النظرات الكونية المتناسقة حول الكون و الإنسان بل و حول الوجود بصورة عامة .(وعلى ضوء هذا المعنى، يمكن أن يعتبر النظام العقائدي و الأصولي لكل دين هو رؤيته الشاملة. (لمترجم)

للإجابة عن هذا السؤال الثاني لا ينبغي لعملنا أن ينحصر في تدوين ما قصدته القواميس والموسوعات وباقي خزائن المعنى المشترك «بالأصولية»، بل يلزمنا النظر أيضا في مسألة شائكة وأكثر أهمية: يتعلق الأمر بأعراض الأصولية وعلاماتها وطريقة اتصالها بالعالم، ألا تتجلّى هذه الأعراض وهذه العلامات حتى في المجالات والدوائر والمؤسسات التي كنّا نعتقد أنها محصنة تماما، وفي مأمن تامّ من هذه الظاهرة؟ هل يمكننا أن نكون أصوليين دون وعي منّا أو دون أن يثير هذا الأمر انتباه أو استفزاز محيطها الاجتماعي؟ تعدّ الإجابة عن هذا السؤال الثاني غاية في الأهمية لا سيما وأنها تكشف عن الكفاءة التوقّعية للتحليل السميائي المهتمّ ليس فقط بتصوير ماضي وحاضر الحياة الاجتماعية، بل بتطورها ومستقبلها: فهل يمكننا بفضل السميائيات كشف الأعراض المبكرة للتوجه الاجتماعي الذي يُظهر رؤية «أصولية» للعالم قبل أو حتى دون أن تتمّ تسميته بذلك؟

إن السميائيين دائما ما يلقون نظرة مزدوجة حول وقائع الحياة الاجتماعية: فهُم يدرسون الكلمات، وباقي أشكال التعبير الإنساني لفهم دلالتها، وبعد ذلك يتساءلون عن بنية المعنى لفهم أفضل لكل تجلياته.

أما الصعوبة الثانية التي يجب على البحث أن يواجهها فهي صعوبة، خارجية، وتتعلق بمتغيرات وطوارئ الحياة الاجتماعية وبتطورها. وبتركيزنا على المحيط الاجتماعي الفرنسي أو الفرنكفوني، فإن التحقيق في هذه الطوارئ عرف تطورا مسرعا بسبب الأحداث الاجتماعية والسياسية التي عرفتها فرنسا سنة 2014 والتي أثرت على مشهدها الثقافي وساهمت في إعادة تشكيل توجهات أخرى، بما في ذلك التوجهات التي يمكن إدراجها، افتراضا، في مجال الأصولية.

ومن بين هذه الأحداث نورد الأساسي منها:

1- نشر القوات العسكرية الفرنسية وتدخلها في مالي ابتداء من 11 يناير 2013؛

2- المواجهة الحادة بين الكوميدي الفرنسي الساخر ديودوني مبالا مبالا [1] مع السلطات الفرنسية حول عرضه المسرحي *الجدار* التي بلغت ذروتها مع قرار مجلس الدولة المنعقد بتاريخ 9 يناير 2014؛

3- تطور جمعية La Manif pour tous (التظاهر للجميع) ومظاهراتها الاحتجاجية والتي كان آخرها يوم 2 فبراير 2014؛

4- إجراء حملات الانتخابات البلدية بباريس لسنة 2014، (23 - 30 مارس2014)؛

5- ردود الأفعال والمظاهرات الاحتجاجية ضدا على التدخل العسكري الإسرائيلي في غزة؛

6- إعلان الدولة الإسلامية في 29 يونيو 2014.

ولئن كانت هذه الأحداث تُبدي تباعدا فيما بينها، فإن هذه الظواهر السابقة تظهر- في عيون مراقب أجنبي اهتم منذ أمد بعيد وبحذق بالثقافة والمجتمع الفرنسي الفرنكفوني و

1- ديودوني مبالا مبالا Dieudonné M'bala M'bala ممثل، فكاهي ساخر وناشط سياسي فرنسي، اشتهر بنقده لليهود، الأمر الذي تسبب له في محاولة منع عروضه من قبل وزير الداخلية مانويل فالس بدعم من الرئيس فرانسوا هولاند. هذا وقد سبق منعه من وسائل الإعلام الفرنسية وحظر عروضه. منعت المحكمة العليا الفرنسية عرضه المسرحي "الجدار" قبيل افتتاحه. وأيدت المحكمة، التي تسمى مجلس الدولة، الحظر المفروض على العرض الذي كان مقررا تقديمه في مدينة نانت لكن محاميه قالوا إن حرية موكلهم في التعبير انتهكت. اتهم الفنان المسرحي بالترويج لكلام عنصري ومعاد للسامية وهو بذلك يهدد النظام العام لأنه مرتبط "بالانفعال الناجم عن إهدار كرامة الفرد." ويعتقد أن عرضه الساخر الجديد "الجدار" سيتضمن إشارات ساخرة لليهود. ويرفض سياسيون ومثقفون وإعلاميون فرنسيون اعتبار ما يقدمه ديودوني في عروضه "حرية التعبير" بل هي "كراهية" كما وصفها برنار هنري ليفي. بينما يعتبر ديودوني أنه ضحية رقابة من السلطة بسبب أفكاره التي لا تمت إلى كراهية اليهود بصلة. وعبر عن ذلك "أنا ضد الصهيونية التي تستمد وجودها من كلمة معاداة السامية التي ترعب الناس، لكنني لست وحدي فكثير من اليهود في العالم يشاركونني هذا الرأي والنضال". يوصف الممثل بأنه "استفزازي"، وقد أثار الجدل في أكثر من عمل، بفعل تناوله لقضايا حساسة، لكن إشارة اليد الشهيرة أو الذراع الممتدة"كونيل" La quenelle" التي ابتكرها، في مسرحيته "الجدار" كانت الأكثر تأثيرا، وانتشرت في الأوساط الشبابية، حتى أن لاعب كرة القدم الفرنسي الشهير نيكولا أنيلكا قلدها في الدوري الإنجليزي مثيرا بدوره جدلا. وسيتم الحديث عن هذه الإشارة وتحليلها بشكل هامّ في ***الفصل الخامس من هذا الكتاب: سميائيات كونيل*** (المترجم)

ينظر إليها من زاوية سميائية صرفة – بعض خطوط التوتر « لسمياء الكون » [1] الفرنسي المعاصر، لهذا لا بدّ من معرفة الكيفية التي تمكن فرنسا الحالية وبشكل أعمّ الدول الفرنكفونية من البناء والتفاوض الدائمين حول معنى الهويات الفردية والجماعية والانتماء الثقافي والعرقي والديني، وخاصة معرفة العلاقة بينها وبين ما هو «آخر» مختلف، غير مندمج أو الذي لا يقبل الاندماج، والذي يُنظر إليه باعتباره عدوا يلزم محاربته، والظفر به.

1- إن سمياء الكون Sémiosphere في نظرية **يوري لوتمان** السميائية هو نموذج يتم بموجبه إنتاج ونشر المعنى من لدن ثقافة ما.

إن بناء يوري لوتمان لهذا المفهوم جاء نتيجة تمثله مفهوم الكون الحيوي biosphère لفرنادسكي، ويتحدد باعتباره الفضاء الضروري لوجود واشتغال لغات مختلفة، وليس مجموعة من اللغات، إنه فضاء قبلي، سابق عن اللغات. ويشكل المنطق الثنائي واللاتناظر قانونين أساسيين لضمان انسجامه النسقي ويرتبط سمياء الكون تصوريا مع شبكة من المفاهيم، جعلت منه مفهوما غنيا متعددا وإشكاليا وهي :**1** – سمياء الكون صيغة للتحليل الشمولي للأنساق الثقافية، **2** – سمياء الكون إضاءة للمبادئ البنيوية للسميوزيس، **3** – سمياء الكون انتقال من التحليل الثابت إلى الدينامي، ومحاولة لفهم التعالق بين الشمولية واللاتجانس، –سمياء الكون فضاء لتوليد المعنى؛ **4** – سمياء الكون والكون الحيوي يمتلكان قابلية التوليف المفهومي، فالثقافة سيرورة وليست بنية.

للمزيد ينظر: LOTMAN (Y), On the semiosphere, tra Wilma Clark, Sign Systems, P.33. 2005. (**المترجم**).

تحليل معجمي ودلالي

انطلقنا في هذا التحقيق بنهج مزدوج. فقد حاولنا من جهة، فهم البنية الدلالية لكلمة «أصولية» في فرنسا والبلدان الفرنكفونية الحالية. وقد تطلب منا هذا البحث إنشاء مدوّنة كبيرة من النصوص الشفهية المتداولة في سمياء الكون الفرنسي والفرنكفوني المعاصر، والتي ساهمت في التعريف الجمعي لكلمة «أصولية». وقد تشكّلت هذه المدوّنة انطلاقا من العديد من الأنواع والأشكال والسياقات الخطابية. ووفاء لتراث علم الدلالة البنيوي، فقد شرعنا في هذا التحقيق بالتحليل العميق للقواميس والموسوعات وباقي أدوات التعريف المعجمي والثقافي المُتاحة حاليا في المجتمع الفرنسي والتي يؤخذ بها كمصادر مرجعية.

لقد قمنا بجرد كل القواميس الأساسية، فضلا عن الموسوعات الأكثر تداولا، لمعرفة الكيفية التي استطاعت بها هذه النصوص تحديد ومفصلة المجال الدلالي المرتبط بكلمة «أصولية». كما حاولنا نقل ولو جزئيا، بطبيعة الحال، معنى هذا المصطلح كما ورد في الاستعمال العادي للغة الفرنسية المعاصرة.

بالإضافة إلى ذلك، فإن الشبكة الدلالية، التي تمت بلورتها انطلاقا من هذه الأدوات المرجعية المقتبسة والتي تمت مفهمتها عبر المنهجية السميائية، قد جرت مقارنتها بطريقة نسقية مع أجزاء الخطاب الجمعي في استعماله العادي واليومي لكلمة «أصولية»، ومع الكلام الذي يُظهر ويُعدِّل في الوقت نفسه مواقفه الاجتماعية انطلاقا مما تأتي به الكلمات ومعناها. وقد تطلبت هذه المقارنة عملية أكثر دقة تتبدّى في إنشاء مدونة متعددة وغير متجانسة مقارنة مع ما هو موجود في الصناعة القاموسية. ولذلك، أين نبحث، عن الدلالة العادية لكلمة «أصولية»، بما أنها تتشكل وتتطور انطلاقا من كمّ هائل من الاتصالات المحدودة، وهي اتصالات قادرة على إحداث تأثير داخل المجتمع الفرنسي الحالي؟

إن اعتماد مُدوّنة متعددة الأشكال والأنواع والسجلاّت سمح لنا بمواجهة هذه المسألة بنهج عقلاني. لأن الهدف لا يتبدّى في تحليل كمّي لمتن أو مدونة شاملة – بشكل غريب عمّا هو سميائي- ولكن في صياغة افتراضات نوعية حول الإشعاع الدلالي لكلمة ما، لذلك شيّدنا متنا هرميا انطلق من نصوص حضورها في سمياء الكون أكثر بنينة – أجزاء من الخطاب الإعلامي مثلا- إلى نصوص تخاطب وتستهدف، بحكم طبيعتها، جمهورا أكثر خصوصية، وتنشر، بالتالي، صياغة أقل شيوعا مما ورد في الحقل الدلالي للأصولية كما هو في آراء الباحثين مثلا.

وقد طَفتْ على السطح بعض النتائج الهامة من خلال المقارنة بين التحديد القاموسي والموسوعي لمفهوم الأصولية من جهة، وراهِن الحقل الدلالي المدروس من جهة أخرى. ذلك أن معظم القواميس التي قمنا بفحصها تركز على أن الأصولية:

1- باعتبارها ظاهرة تاريخية واجتماعية وُلدت مع بداية القرن العشرين في الثقافة الدينية البروتستانتية الأمريكية.
2- تشير، بالإضافة إلى ذلك، إلى الارتباط الوثيق والصارم بالمبادئ التي تؤسس حسب الأتباع والمريدين الاعتراف الديني بأصولها.

وقد قدم قاموس *لاروس*، مثلا، مقترحا لتعريف الأصولية نورده على النحو الآتي:

1- الأصولية هي تيار لاهوتي من أصل بروتستانتي، تطور في الولايات المتحدة إبان الحرب العالمية الأولى، وهو تيار يأخذ فقط بالمعنى الحرفي للكتب المقدسة. ويتعارض مع كل تأويل تاريخي وعلمي إنه يتمسك بالوثوقية والثباتية.
2- هي تيار أتباع ديانة ما، يعودون في هذه الديانة لما يعتبرونه أصلا وأصيلا.

وهناك العديد من الخصائص التي ينبغي الإشارة إليها في هذا التعريف. يتعلق الأمر في المقام الأول بكون هذا التعريف لا ينحصر فقط في الإشارة إلى الأصل التاريخي لظاهرة الأصولية، ولكنه يقترح أيضا تعريفا «تقنيا» أي تعريفا مرتبطا بالممارسات التأويلية السائدة في الدوائر الأصولية. وهكذا فقاموس *لاروس* يذهب في اقتراحه إلى أن الأصولية الدينية تتطابق مع نزعة تأويلية، وبشكل أخص مع النزعة الوثوقية الثابتة التي

لا تتجاوز القراءة الحرفية للنصوص المقدسة. ويعدّ هذا الاقتراح هامّا، كما سيشار لذلك لا حقا، فهو يشير إلى تطابق الأصولية مع ممارسة نصية، وبشكل أدقّ مع ممارسة تقرأ النصوص بطريقة تتعارض مع القراءة التي تعتمد مناهج التاريخ أو علم النص.

أما في المقام الثاني وتحديدا في الجزء الثاني من التعريف الذي أعطاه قاموس *لاروس* للأصولية، فإننا نجده يقترح فهم دلالة هذه الأصولية باعتبارها شيئا مرتبطا «بديانة ما» فهو يلقي بالمقابل ضوء إيجابيا أو على الأقل محايدا حول الظاهرة، مشيرا إلى أنها تركز وتلحّ على «العودة لما يمكن اعتباره أصلا أصيلا». فلا أحد من القواميس والموسوعات التي باشرناها أثناء البحث والتحقيق قد فصل تعريف الأصولية عن أصلها الديني. أي ليس هناك نص أصلي مرجعي لا يلمّح إلى إمكانية وجود أصولية سوف تتطور في المناخ العلماني.

إننا عندما نقارن المصفوفة المفهومية التي رسخها التعريف القاموسي والموسوعي مع التصور الذي شاع عن كلمة «أصولية» في الاستعمال اللغوي، فإننا نلاحظ باستمرار وجود تصورين يبدوان إلى حدّ ما جذريين: فمن جهة، هناك تصور يرى أن كلمة «أصولية» في المخيال الفرنسي الفرنكفوني المعاصر ترتبط، منهجيا، بديانة ما وبشكل خاص بالإسلام، مع عدم تمييزها داخل هذه الديانة بين تيارات متعددة تشكل نسيجها الداخلي المتنوع جدا؛ ومن جهة أخرى قلّما نربط – ماعدا في الحالات التي سنناقشها أكثر– الأصولية الإسلامية بصورة إيجابية، أو على الأقل محايدة، ترتبط بالبعد المعرفي في البحث عن الأصول اللاهوتية والروحية والوجودية والتاريخية كذلك، وقلّما نقوم ببذل مجهود من أجل فهم المنبع العميق للديانة. ففي المخيال الفرنسي والفرنكفوني الحالي كما يظهر وكما تغذيه الوسائط الإعلامية، نجد أن الأصولية، جوهريا، لا ترتبط بالمحيط المعرفي واللاهوتي بل بالبعد الانفعالي والتداولي. وبمعنى آخر أن تكون أصوليا في المخيال الفرنسي الحالي فهذا لا يقتصر فقط على الجانب اللاهوتي والروحي، بل، أساسا، على دور اجتماعي يتسم بسيادة الموقف الانفعالي تجاه العالم وتحديدا بسيادة سلسلة من المقاصد والمشاريع والغايات التي تهم الدولة الاجتماعية وعلاقاتها ومؤسساتها. وبشكل عام إذا كانت الأصولية في لغة مؤلفي القواميس والموسوعات تمثل ظاهرة ثقافية وموقفا

فكريا في المخيال المشترك، فهي بدلا من ذلك، تشكل تهديدا ومصدرا للصراع وضدا على الذات.

ولفهم هذه المسألة بطريقة أخرى، لا بدّ من الإشارة، في الإطار النظري للسميائيات التوليدية، إلى أن المخيال الفرنسي والفرنكفوني المعاصر قد اخترق من قبل توجه قيمي قوي إزاء الأصولية. وقد نشأ هذا التيار تاريخيا في رحم المسيحية البروتستانتية الأمريكية ويحضر باعتباره موقفا فكريا في جميع الثقافات الدينية، وليست تلك التي تُنسب إلى الإسلام فقط، ولا يدرك إلا باعتباره تجليا لقوة معادية ومنخرطة في صراع أكثر أو أقل وضوحا مع أو ضد فرنسا (وضد الغرب كذلك). وبعبارة أخرى، فإن الأصولية في سمياء الكون الفرنسي المعاصر لا تشكل فقط جزءا من حقل دلالي لمخيال ما، ولكنها جزء من حكاية وسرد يستطيع بواسطته أفراد الثقافة الفرنسية عبر أقوالهم ونصوصهم، النظر إلى هذه الظاهرة بوصفها قوة وبوصفها عاملا اجتماعيا قادرا على جلب صراع إيديولوجي طويل الأمد، على الأقل في المخيال المشترك الذي تتقاسمه الأغلبية، وهو صراع حاسم في مصير الثقافة الفرنسية. وباستثناء خطاب المتخصصين فإن استهجان وازدراء الأصولية واتهامها باعتبارها انحرافا عن الحضور الديني الإسلامي في فرنسا موجود في كل مكان. أما عندما يتعلق الأمر بغير المتخصصين، بمن فيهم الباحثون الجامعيون، فالكل يجهل الأصل التاريخي للظاهرة ووجودها في عقائد أخرى. كما أن احتمال تأثير سمياء الكون العلماني عبر أشكاله الخفية في الأصولية قد تم استبعاده مسبقا.

إن ثقافات أخرى ولغات أخرى تتخذ مواقف مخالفة تجاه الأصولية. ففي سمياء الكون الأمريكي المعاصر مثلا، نجد أن الذاكرة التاريخية لأصل هذا التيار، وكذا حضوره الدال في الحياة الثقافية والاجتماعية والسياسية للبلد، يُظهر بمعنى ما أن التساوي بين دلالة الأصولية والإسلام ليست منهجية كما في فرنسا.

فما هي أسباب وتداعيات هذا التباين المشار إليه من قبل التحليل السميائي بين التعريف الموسوعي والصناعة القاموسية لكلمة ومفهوم «أصولية» من جهة، وبين المخيال الذي أحاط بالمفهوم في الاستعمال اليومي من خلال العلامات الدالة عليه من جهة

أخرى؟ يمكننا أن نشير، عبر نهج افتراضي، إلى أن الفاصل الزمني بين الاستعمال الدلالي والصياغة المعجمية لهذا المفهوم لعب دورا حاسما في توليد هذا التباين. حيث يشير إلى السرعة الحديثة لميلاد توجه ثقافي مرتبط بوجود الإسلام في فرنسا وبالمخيال الذي يغذيه. وإن لهذه التداعيات أيضا أكثر من دلالة. وبالمقارنة مع الفهم العالِم والأكاديمي للأصولية فإن «المخيال الشعبي» يكشف عن قصوره المتزايد في نظرته إلى،

1- الأصولية الإسلامية باعتبارها تمظهرا لموقف فكري روحي قادر على، التأثير في جلّ أو كل الثقافات الدينية وعلى مجالات غير دينية تنتمي إلى الحياة الاجتماعية.
2- اعتبار الأصولية معطى أنثربولوجيا محايدا، دون تحميله إيحاءات عدائية سبقت الإشارة إليها.

وكما سنبرز لا حقا، فإن حضور هذا الموقف الثقافي في مركز سمياء الكون الفرنسي المعاصر، شكل عنصرا محوريا في إقامة حلقة تواصلية مفرغة، ساهمت في تجذّر تدريجي للعزل الإسلامي عن المحيط الاجتماعي الفرنسي وما ترتب عنه من تطرف لمنظومة القيم المنفعلة والقلقة التي يمثل بموجبها المخيال الفرنسي الفاعلية الاجتماعية والسياسية، بشكل خاص، للأصولية الإسلامية.

إحالات بيبليوغرافية

موازاة مع تحليل الحقول المعجمية والدلالية، عرف البحث تطورا انطلاقا من استعراض شامل للأدبيات الموجودة حول ظاهرة الأصولية في اللغات التي كانت متاحة للباحث. وقبل استخلاص نتائج هذا البحث، لا بد من الإشارة إلى الصعوبة التي واجهته والمعايير المعتمدة لتجاوز ذلك. وكما أتينا على ذكر ذلك في الفصل المخصص للتحليل الدلالي، فإن مصطلح أصولية يتطابق مع تعريفات معجمية متغيرة كما يتطابق مع تصورات أو متخيّلات أكثر تنوعا. وهو ما وقع بطريقة مماثلة مع المصادر والمراجع المكتوبة حول هذا الموضوع. فالمصادر والمراجع المعتمدة باللغة الفرنسية تميل إلى التمييز، بوضوح شبه تام، على الأقل في تصنيف المؤلفات، بين «الأصولية البروتستانتية» و«التطرف الإسلامي» وذلك بإشارتها إلى الاختلاف بين الأصل التاريخي للظاهرة الدينية وما يناظرها في مذاهب أخرى. إن المصادر والمراجع المعتمدة باللغة الفرنسية، مثلها مثل القواميس والموسوعات إذن، لا تحتفظ بالتقاطع الوارد بين «الأصولية» و«الإسلام » الذي يبدو، كما سنرى لا حقا، أنه يحتل موقعا مركزيا في المخيال الفرنسي المعاصر. ومن أجل تجاوز معيقات البحث والتغلب على الصعوبات التي واجهته قمنا بالإشارة إلى كل الأعمال التي كتبت حول الأصولية الدينية ومرادفاتها (التطرف والراديكالية والتشدد والاستئصالية...) لكننا أقحمنا فاصلا زمنيا في هذه الإشارة: يتعلق الأمر بالمؤلفات التي كتبت بعد سنة 2001 والسبب في هذا الانتقاء يبدو واضحا وبديهيا وهو: أن أحداث 11 شتنبر 2001 المأساوية أحدثت تغييرا جذريا في مفهوم الأصولية الدينية في كل المجالات وعلى كافة مستويات صياغة المعنى المشترك للمفهوم والخطابات المتداولة في سمياء الكون بأكمله. وهكذا وانطلاقا من سنة 2001 تضاعفت المنشورات سواء الورقية أو الرقمية في كل بقاع العالم حيث حاولت إعطاء إجابة على المطلب الاجتماعي وتعريفه بخصوص هذه الظاهرة وهو مطلب قلق يتزايد باستمرار. ومع ذلك فإن منحنى الاهتمام الجمعي بالأصولية الدينية لم يتطور بطريقة موحدة ولكنه عرف تذبذبات كبيرة ودالة في ارتباطها مع أحداث أساسية للتاريخ الجيوسياسي الحديث. وعوض استعراض

كل الأبحاث والمجلات التي كتبت عن الظاهرة، فإننا سوف لن نشير وفي حدود معقولة داخل هذا الفصل، إلاّ إلى الأعمال المنشورة في سنتي 2013 و2014 وسوف نحيل على التقارير والدراسات التركيبية المنشورة خلال هذه الفترة، كما سنحيل على منشوراتنا السابقة.

وقد استمرت بعض المؤلفات القليلة في الكتابة عن الأصولية التاريخية المنحدرة من البروتستانتية الأمريكية (منها مثلا كتاب: *المدخل إلى تاريخ المسيحية الأمريكية* [1] لصاحبه كريستوفر هـ .إيفانس المنشور سنة 2013). لقد ركزت هذه المؤلفات في غالب الأحيان، على تأثير هذا التيار الديني في سياقات ثقافية أخرى. إنه وقع وتأثير أصولية الولايات المتحدة الأمريكية EEuu[2] في أمريكا اللاتينية التي تهتم *بالهوية وكل خطاباتها* كما في كتاب: خوصي لويس أفاندانو الصادر سنة 2013 *تأثير بروتستانتية الولايات المتحدة أو دين أمريكا في العالم المسيحي لأمريكا اللاتينية* [3] في حين يهتم كتاب: *جُند المسيح: الإنجيليون في غزو فرنسا*، لمؤلفته ليندا كاي [4] بنشر الأصولية الإنجيلية في السياق الفرنسي. وفي السياق الإيرلندي نقرأ كتاب: *عودة المسيح الثانية: الأصولية المقاتلة وسياسات أولستر*، لصاحبه ريشارد لورانس جوردان الصادر سنة 2013. [5] وهناك أعمال أخرى اهتمت بالحالة الأمريكية ولكنها ترتبط في كثير من الأحيان بمواضيع خاصة مثل نشر نظريات الخلق المنحدرة من الأصولية البروتستانتية الأمريكية كما حصل مع

1-Christopher H. Evans.2013: Histories of American Christianity: an Introduction

2 -EEUU هذه الأحرف بالإسبانية وهي اختصار للولايات المتحدة الأمريكية وقد كتبت بشكل مكرر لأنها دالة على الجمع.(**المترجم**)

Abbreviation of Estados Unidos Estados Unidos (USA, United States, United States of America).

3 -José Luis Avendano.2013: el influjo del protestantismo de los Estados Unidos o La American religion en el mundo evangélico de América Latina.

4 - Linda Caille Soldats de Jésus.2013: les évangéliques à la conquête de la France.

5 - Richard Lawrence Jordan . 2013 : The Second Coming of Paisley : Militant Fundamentalism and Ulster Politics,

و أولستر Ulster هو تنظيم شبه عسكري بروتستانتي في إيرلندا الشمالية نسبة إلى أولستر الإقليم الإيرلندي سابقا والواقع شمال جزيرة إيرلندا. أولستر تعني أيضا جماعة مسلحة في شمال الجزيرة الإيرلندية بدأت حربها ضد الإيرلنديين الجمهوريين منذ العام 1912. عناصره مؤيدون لضم المنطقة بالكامل للمملكة المتحدة. (المترجم).

كتاب: (*التصميم الذكي: كيف بنى دعاة الخلق حملتهم ضد التطور*، لمؤلفه إدوارد كوديل سنة2013، [1] *وكتاب الأنواع العرضية: سوء فهم تطور الإنسان* المنشور من قبل هنري غاي سنة2013). [2]

إن أغلبية المؤلفات المشار إليها ركزت على الأصولية في الإسلام الراهن باعتبارها توجها دينيا واجتماعيا سياسيا على حدّ سواء. ويمكننا تصنيف هذه المؤلفات إلى صنفين فرعيتين:

– صنف يتبنى فيه مؤلفو هذه الأعمال منظورا «داخليا» إلى الإسلام، إذ يحاولون تصوير الوضع الراهن في سياق أو سياقات اجتماعية وسياسية متعددة لفهم خطوط التطور والتوتّر التي تميز هذه السياقات بهدف اقتراح مسار للإصلاح أو الإصلاح الذاتي الذي يمكن أن يقود الجماعات الإسلامية إلى إقامة علاقات سلمية مع الجماعات الدينية الأخرى، وخاصة مع «المجتمعات الحديثة» و«المجتمعات العلمانية». ومن المؤلفات التي تسير في هذا المنحى مثلا، كتاب: *أخطر مكان في العالم* لمؤلفه جيمس فيرغيسونين الصادر سنة 2013 [3]، وكتاب: *الإسلام السياسي في عصر الدّمقرطة* لصاحبيه قمران بخاري

1-Edward Caudill. 2013 : Intelligently Designed: How Creationists Built the Campaign against Evolution.

التصميم الذكي هذا المفهوم عبارة عن شكل معاصر للدليل الغائي لوجود الله، يُقدم على أنه قائم على أدلة علمية بدلاً من الأفكار الدينية. وتم تعديله لتجنب الحديث حول ماهية المصمم أو طبيعته وهي بنظر مؤيديها نظرية علمية تتفوق على النظريات الحالية التي تتعلق بالتطور وأصل الحياة. ونظرا لنمو **نظرية الخلق** في أمريكا كحركة سياسية، يشرح هذا الكتاب لماذا نجحت، لا سيما في أميركا، ظاهرة مكافحة التطور باعتبارها اعتقادا شعبيا. فهي تتصور تاريخ الخلق بوصفه حملة استراتيجية للعلاقات الشعبية. وقد حاول إدوارد كوديل في هذا الكتاب فحص الأسباب التي جعلت هذه الحركة تفتن وتستولي على مخيال الرأي العام الأمريكي بدءا من محاكمة المتفجرات لعام 1925 إلى المعارك الطاحنة حول المناهج الدراسية في المدارس العمومية. كما حاول إظهار الكيفية التي ناشدت بها هذه الحركة القيم الثقافية مثل الحقوق الفردية، وحب وتقدير روح التمرد وهكذا تسعى هذه الحركة الناجعة في ترويج مثل هذه القيم لتنصب نفسها في النهاية بديلا للتطور.(المترجم)

2-Henry Gee. 2013 : The Accidental Species: Misunderstandings of Human Evolution.

3-James Fergussonen. 2013: The World's Most Dangerous Place.

وفريد سينزاي الصادر سنة 2013. [1] وكتاب: *التفكير في الإسلام مجددا: الجهاد من أجل الديمقراطية والحرية وحقوق المرأة* من تأليف كاطاجون أمير بور الصادر سنة 2013. [2] أو العمل الموجه إلى الغالبية العظمي من الناس والمعنون بـ: *فتواكم لن تطبق هنا: قصص لم تُروَ عن مكافحة الأصولية الإسلامية*، المنشور من قبل كريمة بنون سنة 2013. [3] أو أيضا تلك الأبحاث العديدة التي جمعت في ثلاثة مجلدات ونشرت سنة 2014 من قبل صادق جلال العظم تحت عنوان: *العلمانية والأصولية والنضال من أجل معنى للإسلام: أبحاث في السياسة والدين*. [4] واللافت للنظر بشكل خاص إزاء هذه المنظورات «الداخلية» هو إرادتها في إعادة توضيح ومفصلة الرؤية «الأحادية» للأصولية الإسلامية للكشف، بدلا من هذه الرؤية، عن الفروق الدقيقة، والتوترات الداخلية داخل الأصولية، وديناميات التفاوض والتطور لديها. ويمكننا أن نذكر في هذا الصدد كتاب: *حركة الشباب في الصومال: التاريخ و إيديولوجيا الجماعة الإسلامية المقاتلة*، الذي نشره

1- Kamran Bokhari et Farid Senzai.2013 : Political Islam in the Age of Democratization.

2 - Katajun Amirpur.2013 : Den Islam neu denken : der Dschihad für Demo-kratie, Freiheit und Frauenrechte

3 - Karima Bennoune .2013 : Your Fatwa Does not Apply here : Untold Stories from the Fight against Muslim Fundamentalism

استلهم كتاب ***فتواكم لن تطبق هنا*** للكاتبة الجزائرية كريمة بنون محتواه من شهادات رجال ونساء أبدوا شجاعة نادرة في مواجهة العنف والتطرف، مخصصة حيزا كبيرا للتجربة الجزائرية المريرة والتي تم عرضها في ما وراء الأطلسي بالخصوص. وقالت: «لقد كتبتُ هذا الكتاب لتخليد روح ضحايا الحرب التي يشنها الجهاديون على الثقافة منذ عشرين سنة، وهذا حتى نقول لعائلاتهم وزملائهم الذين يواصلون عملهم أن تقدميي البلدان الأخرى لن ينسوهم». وهو يهدف إلى تسليط الضوء على من قاوم وضحى بحياته من أجل إعلاء مبادئ الحرية والديمقراطية والمساواة في العالم العربي الإسلامي، مؤكدة أن شجاعة هؤلاء هي التي دفعتها إلى تسليط الضوء على مساراتهم ونضالهم وإظهارهم للعلن لتقديم صورة مغايرة عن تلك التي ارتسمت في الأذهان حول مجريات الأحداث في العالم الإسلامي ومنها الجزائر.

للمزيد ينظر الرابط الموالي http://www.elkhabar.com/ar/autres/nadwa/372641.html **(المترجم).**

4- Sadik J. al-Azm Secularism, Fundamentalism and the Struggle for the Meaning of Islam : Collected Essays on Politics and Religion

ستيغ جارل هانسن سنة 2013 [1] حول السياق الصومالي، أو أيضا كتاب: *رماد حماة: التاريخ الخطير لجماعة الإخوان المسلمين بسوريا*، حول السياق السوري لصاحبه رفائيل لوفيفر سنة 2013 [2]، أو كتاب: *أفغانستان من الحرب الباردة إلى الحرب على الإرهاب*، حول السياق الأفغاني، لمؤلفه بارنيت ريتشارد روبين، سنة 2013 [3]. أو كتاب: *الجهاد في باكستان: التاريخ والتطور والآفاق* حول السياق الباكستاني لصاحبه دانييل ماتياس تيم سنة 2013 [4]، وكتاب: *التنافس على أصوات الله: فهم الأحزاب الإسلامية والعنف السياسي والتطرف في باكستان*، المنشور من لدن هارون ك. أولاّه سنة 2013 [5]، وكذلك كتاب: *من الجهاد إلى صناديق الاقتراع: المسيرة الفريدة لعبد الحكيم بلحاج* حول السياق الصومالي لصاحبته إيزابيل ماندرو سنة 2013 [6]، وحول الشيشان نجد مؤلَّف: *التطرف التطرف الإسلامي في الشيشان: هل هو تهديد لوطن الولايات المتحدة؟* (ويعد هذا ورقة عمل أنجزتها الحكومة الأمريكية ونشرتها سنة 2013، كما قامت المؤسسة نفسها بنشر التقارير الكاشفة *لتهديدات المسلحين الإسلاميين لأوربا وآسيا والتهديدات العالمية لتنظيم القاعدة: الفروع والأهداف والتحديات المستقبلية*. وكذا *حماية الوطن ضد هجمات مومباي وتهديد جماعة عسكر طيبة* [7]. وقد وردت كل هذه الأعمال والتقارير سنة

1- Al-Shabaab in Somalia : the History and Ideology of a Militant Islamist Group, publié par Stig Jarle Hansen en 2013

2- Ashes of Hama: the Perilous History of Syria's Muslim Brotherhood, publié par Raphaël Lefèvre en 2013.

3- Afghanistan from the Cold War through the War on Terror, publié par Barnett R. Rubin en 2013.

4-Dschihadismus in Pakistan : Geschichte, Entwick-lung, Perspektiven, publié par Daniel Matthias Timm en 2013

5- Vying for Allah's Vote : Understanding Islamic Parties, Political Violence, and Extremism in Pakistan, publié par Haroon K. ullah en 2013.

6 - Du djihad aux urnes : le parcours singulier d'Abdelhakim Belhadj, publié par Isabelle Mandraud en 2013

7- تعد جماعة **«عسكر طيبة»**،Lashkar-e-Taiba إحدى أبرز الجماعات الأصولية في جنوب آسيا. وتشكلت وتشكلت الجماعة عام 1987على يد حافظ محمد سعيد في إقليم كونار بأفغانستان لتكون الجناح العسكري لمنظمة أصولية إسلامية من طائفة أهل الحديث في باكستان هي «مركز الدعوة والإرشاد». برزت «الجماعة» من الجهاد الأفغاني ضد الاتحاد السوفياتي باعتمادها أجندة إسلامية جهادية. اتهمت هذه الجماعة المتطرفة بالوقوف وراء الهجمات الدامية التي استهدفت مومباي عاصمة الهند الاقتصادية. (المترجم)

2013). وفي سياق إفريقيا الغربية نقرأ: *التسلح والعنف في غرب إفريقيا: الدين والسياسة والتطرف*، المنشور سنة 2013 [1] تحت إشراف جيمس غوي وفونمي أولونيساكين وإيرنيست ديكسهورن، كما نقرأ دراسة عناية الرّحمانية «*تفاوض المرأة بشأن وضعيتها ومكانتها في الحركة الإسلامية الأصولية*» المنشور ضمن العمل الجماعي «*الجندر والسلطة في الإسلام الأندونيسي: القيادات والحركات النسائية والنزعات الصوفية والروحية*»، الذي ظهر سنة 2014 [2] تحت إشراف بيانكا ج. سميث و مارك وود وارد والمخصص للحديث عن السياق الأندونيسي بوصفه واحدا من أكثر السياقات إثارة للاهتمام في العالم المعاصر، (وفي الموضوع نفسه نقرأ: « *النسوية الجديدة في جنوب آسيا: مفارقات وإمكانات*» الذي نسقته وأشرفت عليه سريلا روي سنة 2013). [3]

وهناك ميزة أخرى لهذا النوع من المؤلفات تتبدّى في إشارتها إلى وجود أصوليات متعددة حتى داخل الإسلام نفسه، ومن شأن هذا أن يجعلنا نفهم خصائص كل واحدة منها وعلاقاتها الخاصة مع السياقات الاجتماعية والسياسية التي تنتمي إليها. ولعلّ صدور كتاب: *استبداد الشرق الأوسط الحديث: الجذور والامتدادات والأزمات* سنة 2014 [4] تحت إشراف نور الدين جبنون، ومهرداد كيا، وميمي كيرك يعدّ ضروريا في هذا هذا الجانب، لأنه يظهر خصوصية العلاقات التي تقيمها الأصولية الإسلامية مع الأنظمة الاستبدادية في الشرق الأدنى والمتوسط ويفسر أسباب تطور الراديكالية الإسلامية في سياق «الربيع العربي» (وسابقاته الإيرانية). وحول الموضوع نفسه نجد كتاب: *الإخوان المسلمون: من المعارضة إلى السلطة*، الصادر سنة 2013 [5] لصاحبه أليسون بارغيتير. (ونجد في الموضوع نفسه كتاب: *الإخوان المسلمون: تطور حركة إسلامية*، الصادر

1-Militancy and Violence in West Africa : Religion, Politics, and Radicalisation,2013, James Gow, Funmi olonisakin, et Ernst Dijxhoorn

2-Gender and Power in Indonesian Islam : Leaders, Feminists, Sufis and Pesantren Selves, parue en 2014 sous la direction de Bianca J. Smith et Mark Woodward.

3 -New South Asian Feminisms : Paradoxes and Possibilities, publié sous la direction de Srila Roy en 2013

4- Middle East Authoritarianism : Roots, Ramifications, and Crisis, publié en 2014 sous la direction de Noureddine Jebnoun, Mehrdad Kia et Mimi Kirk

5- Muslim Brotherhood: from Opposition to Power, publié en 2013 par Alison pargeter

سنة2013 [1] من قبل كاريي روزيفسكي ويكهام)؛ وكتاب: *العالم بعيون عربية: الرأي العام العربي وإعادة تشكيل الشرق الأوسط*، الصادر سنة 2013 [2] لمؤلفه شبلي تلحمي، كما نجد بعض الكتابات الأقل أكاديمية مثلا كتاب: عديد داويشة، *النهظة العربية الثانية: الثورة والديمقراطية والتحدي الإسلامي من تونس إلى دمشق*، الصادر سنة 2013 [3]، أو كتاب: *التطرف الإسلامي في أوربا والشرق والأوسط: إعادة تقييم لأسباب الإرهاب*، الصادر سنة 2013 [4] تحت إشراف جورج جوفي. وهناك أعمال تتبنّى وجهة نظر انتقادية مهمة جدا من ذلك مثلا كتاب: *حمى الربيع: وهم الديمقراطية الإسلامية*، لمؤلفه أندريو ماكارثي سنة 2013 [5].

أما الصنف الفرعي الثاني من المؤلفات فهو الذي حاول فيه مؤلفوه، بدلا من الصنف الأول، أن يلقوا نظرة على الأصولية من «الخارج» في محاولة منهم لربط هذه الأصولية أو تصويرها باعتبارها نتيجة لظواهر أكبر و أوسع؛ وهي ظواهر منتشرة في أبعاد مختلفة من الحياة الجمعية. وهذه هي وجهة النظر التي اختارها مثلا كارلو ديغلي أباتي صاحب كتاب: *التطرف باسم الإسلام: مسؤولية مشتركة؟*، سنة 2013 [6].

وهناك من فسّر الأصولية الإسلامية باعتبارها منتوجا مصغرا للنظام الاقتصادي العالمي الراهن وهو ما أشار إليه المؤلف طاطاه مانطان صاحب كتاب: *الدفع بإمبراطورية*

1-The Muslim Brotherhood : Evolution of an Islamist Movement, publié par Carrie Rosefsky Wickham en 2013.

2-The World through Arab Eyes : Arab Public Opinion and the Reshaping of the Middle East,publié par Shibley Telhami en 2013.

3-The Second Arab Awakening: Revolution, Democracy, and the Islamist Challenge from Tunis to Damascus, publié par Adeed Dawisha en 2013.

4-Islamist Radicalisation in Europe and the Middle East : Reassessing the Causes of Terrorism, publié en 2013 sous la direction de George Joffé.

5- Spring Fever: the Illusion of Islamic Democracy, publié par Andrew C. McCarthy McCarthy en 2013.

6-Il radicalismo nel nome dell'Islam: una responsabilità condivisa? publié par Carlo degli Abbati en2013.

الكون: وجه يانوس وصراع الشركات من أجل الثروة والسلطة [1]، الصادر سنة 2014 [2]، وتحديدا في فصل الكتاب المعنون ب: « *الأصولية بوصفها جزءا من الضغط العالمي*». ومن كل المنظورات الممكنة التي عالجت الأصولية بشكل لافت للنظر نورد *المنظور الحقوقي* لا سيما عندما يسعى هذا المنظور إلى توضيح ومفصلة معرفة الأصوليات بناء على النتائج أو التبعات القانونية والتي يترتب على مبادراتها داخل الحياة الاجتماعية وجود علاقة مع الأطر القانونية المعيارية لكل سياق تشريعي. إن هذه القضية هي التي يتناولها بالتحليل مثلا كتاب: *الجندر والأمن الوطني ومكافحة الإرهاب: منظورات حقوق الإنسان*، الصادر سنة 2013 [3] والذي أشرفت عليه كلاّ من مارغاريت ساتيرثوايت وجاين هوكربي (وتحديدا في الفصل المتعلق «*بالأصولية الإسلامية وحقوق الإنسان في عصر الإرهاب والإمبراطورية*» [4] المقدّم من لدن الباحثتين الباحثتين آمنة أكبر و روبآل أوزا)، أو فصل: *الأصولية والتطرف والإرهاب: التشابه والاختلاف وعواقب سياسة «القائمة السوداء»* [5] الصادر سنة2014 للباحثتين داون روث وفيكتوريا كولينز والوارد ضمن *دليل روتليدج للجريمة الدولية ودراسات العدالة*،

1- يمثل الإله يانوس Janus في الأسطورة الرومانية وجهين: وجه ينظر شرقا وآخر ينظر غربا . اختزال لطبيعة بشرية لن تلتقي، وتأويلات ودعاوى وتراث منفلت عن المدار. إنه حارس باب السماء ذو الوجهين، واحدٌ يدخلك إلى السماء والثاني يخرجك منها، واحدٌ يدخلك إلى الماضي والثاني يخرجك إلى المستقبل، واحدٌ يدخلك إلى الموت، والثاني يخرجك إلى الحياة...(المترجم)

2 -Advancing the Global Empire: the Janus Face of the Corporate Struggles for Wealth and Power, publié en 2014 par Tatah Mentan.

3 -Gender, National Security and Counter-Terrorism: Human Rights Perspectives, publié en 2013 sous la direction de Margaret L. Satterthwaite et Jayne C. Huckerby

4- « 'Muslim Fundamentalism' and Human Rights in an Age of, Terror and Empire Empire » d'Amna Akbar et Rupal oza.

5-Fundamentalism, Extremism, Terrorism : Commonalities, Differences and policy Implications of « Blacklisting », publié en 2014. Par Dawn L. Rothe and victoria E. Collins.

الذي قام بتنسيقه الباحثان بروس أريغو و هيثير بيرسوت؛[1] أو أيضا بالنسبة للسياق الألماني حيث كتاب: *الإسلام والإسلاموية وأوربا: الانسجام والاختلاف والنزعة الأوروإسلامية وميثاق الاتحاد الأوربي للحقوق الأساسية* الصادر سنة 2013 لمؤلفه غابرييل هان.[2]

وبالإضافة إلى هذا هناك سلسلة من المساهمات العلمية التي عالجت الأصولية الإسلامية من جهة تأثيرها على المحيط الغربي تحديدا كما هو الحال مثلا مع انتشار السلفية في ألمانيا وقد أشار إلى هذا كتاب: *السلفية: التيارات الأصولية والوقاية من التطرف*، الصادر سنة 2013[3] لصاحبيه روف سيلان وميخائيل كيفير، كما نجد كتاب: *الحرية والمساواة واللاتسامح: الإسلام في المجتمع الليبرالي الألماني والأوربي* الصادر سنة 2013[4] لمؤلفه كاي حافظ؛ وفي المملكة المتحدة هناك كتاب: *التطرف المكشوف* الصادر سنة 2013[5] لصاحبه فرحان والي؛ وفي هولندا نجد كتاب: *ثاني نونبر: من كان وراء مقتل ثيو فان كوغ؟* الصادر سنة 2013[6] لصاحبه توماس روس؛ أو في أوربا الفرنكفونية ينظر كتاب: *الحركات الإسلامية الجذرية والغرب: الأسباب المنطقية لتشكيل*

1-The Routledge Handbook of International Crime and Justice, Bruce A. Arrigo et Heather Y. Studies dirigé par

2 -Islam, Islamismus, Europa: Kompatibilitats differenzen und euroislamische Losungsansatze im Kontext der EU- Grundrechtecharta, publié par Gabriel Hanne en 2013.

3-Salafismus: fundamentalistische Stramungen und Radikalisierungspravention, publié par Rauf Ceylan et Michael Kiefer en 2013.

4- Freiheit, Gleichheit und Intoleranz : der Islam in der liberalen Gesellschaft Deutschlands und Europas, publié par Kai Hafez en 2013.

5- Radicalism Unveiled, publié par Farhaan Wali en 2013.

6- De tweede november : wie zat er achter de moord op Theo van Gogh?, publié par Tomas Ross en 2013.

الإسلاميين الجذريين في المجتمعات الغربية، الصادر سنة 2013 [1] لكاتبته صوفي فيولي، أو الكتاب «المناضل» الموجه للجمهور العريض: *الجهاديون الجدد: هم بيننا: من هم؟ وكيف نحاربهم؟* الصادر سنة 2013 [2] لصاحبه كلود مونيكي، أو في مالي (ولكن في ارتباط مع «الحرب الفرنسية»: *فرنسا في حرب في مالي: مواجهات القاعدة في بلاد المغرب الإسلامي وتمرد الطوارق*، الصادر سنة 2013 [3] لصاحبه جين فلوري، وفي المنظور نفسه، نجد كتاب: *حربنا السرية في مالي: التهديدات الجديدة ضد فرنسا*، لمؤلفيه إيزابيل لاسير و ثيري أوبيرلي والصادر سنة 2013 [4] أو في روسيا، *(صعود الجماعات الإسلامية الجذرية غير الرسمية في منطقة الفولغا الروسية: تقرير برنامج مركز الدراسات الاستراتيجية الدولية الروسي والأورو أسيوي*، المنشور من قبل سيرجي ماركدنوف سنة 2013.) [5]

ودائما في هذا الصنف من المنشورات سوف نشير بالإضافة لما سبق، إلى بعض المؤلفات التركيبية من قبيل، *المدخل إلى الأصولية الإسلامية*، لصاحبه لورانس دافيدسون الصادر سنة 2013 [6] (في طبعته الثالثة)، أو كتاب: *الأصولية الإسلامية منذ 1945*، لصاحبه

1-L'islamisme radical et l'Occident : les logiques du ralliement aux formations islamistes dites radicales dans les sociétés occidentales, publié par Sophie viollet en 2013.

2-Néo djihadistes : ils sont parmi nous : qui sont-ils, comment les combattre, publié par Claude Moniquet en 2013.

3-La France en guerre au Mali : les combats d'AQMI et la révolte des Touareg, publié par Jean Fleury en 2013.

4 -Notre guerre secrète au Mali : les nouvelles menaces contre la France, publié par Isabel Lasserre et Thierry oberlé en 2013.

5-The Rise of Radical and Nonofficial Islamic Groups in Russia's Volga Region : a Report of the CSIS Russia and Eurasia Program, publié par Sergey Markedonov en 2013.

6-Islamic Fundamentalism: an Introduction, publié par Lawrence Davidson en 2013.

بيفيرلي ميلتون إدواردز والصادر سنة 2013، [1] أو كتاب: *الدين في العالم المعاصر: مدخل سوسيولوجي*، لمؤلفه ألان ألدريدج، والصادر سنة 2014 [2]، والذي يتضمن محورا حول «*الأديان الخطيرة؟ الأصولية*».

إن الأعمال المقارنة، رغم قلّة عددها، إلا أنها لا تخلو من أهمية لما تنطوي عليه من مواقف إيديولوجية تمثل أقلية، لكن مع ذلك تبدو ملحوظة تجاه الأصولية،كما أنها تسعى جادّة لمحاولة فهم نقط التقاطع والتشابهات بين الأصولية الدينية في العالم الغربي والأصولية الإسلامية وبعض الظواهر الدينية الأخرى التي تستحق العناية نفسها. نذكر في هذا الصدد كتاب: *الأصولية الدينية في الشرق الأوسط: تحليل بين- قومي وبين- ديني وبين- عرقي*، لصاحبيه منصور عادل وستيوارت كارابينيك والصادر سنة 2013 [3]؛ وكتاب: *الأصولية: الحركات الجذرية في الأديان العالمية*، الصادر سنة 2013 [4] لصاحبه وولفغانغ ويبّيرمان، كذلك كتاب: *بين عوفاديا وعبد الله: الأصولية الإسلامية والأصولية اليهودية في إسرائيل*، الصادر بالعبرية سنة 2013، [5] لصاحبه نوهاد علي، أو فصل «*الأصولية والاستئصال والتطرف الديني*» لمحرّره دوغلاس برات والوارد ضمن مجلد: *فهم العلاقات بين الأديان*، الذي أشرف عليه وقام بتنسيقه دافيد شيتهام ودوغلاس

1-Islamic fundamentalism since 1945, publié par Beverley Milton-Edwards en 2013.

2-Religion in the Contemporary World a Sociological Introduction, publié par Alan Aldridge en 2014.

3-Religious Fundamentalism in the Middle East : a Cross-National, Inter-Faith, and Inter-Ethnic Analysis, publié par Mansoor Moaddel et Stuart A. Karabenick en 2013.

4-Fundamentalismus: radikale Stramungen in den Weltreligionen publié par Wolfgang Wippermann en 2013.

5-Between Auvadia and Abdallah : Islamic Fundamentalism and Jewish Fundamentalism in Israel, publié en hébreu en 2013.

برات ودافيد توماس سنة 2013 [1]. وعن السياق الفرنسي نجد كتاب: *فرنسا المتشددين: المتطرفون اليهود والمسيحيون والمسلمون ورفض الجمهورية*، الصادر سنة2013 [2] لكاتبه رونيه غيتون. أما المنشورات التي تناولت الصراع بين الأصوليات الدينية حول نفس الفضاء الرمزي، فإننا سنشير أيضا إلى كتاب: *مركزية القدس: اليهودية والمسيحية والإسلام والأصولية والسلام والمصالحة في الأماكن المقدسة* الصادر بهولندا سنة 2013، [3] لمؤلفه ساتور أهلبيرغ.

إن إلصاق شعار أصولية بثقافة دينية ما أو لإحدى تياراتها، لا يمكن النظر إليه بوصفه إجراء محايدا، بل العكس، إن هذا الشعار يستبطن وعيا إيديولوجيا محددا اعتبارا لما يشتمل عليه مصطلح «أصولية» من إيحاءات سلبية. وللتدليل على وجهة النظر هذه المثيرة للجدل نورد كتاب نور مصالحة: *الكتاب المقدس الصهيوني: الكتاب المقدس السابق والاستعمار ومحو الذاكرة*، الصادر سنة 2013. إن الأعمال التي تحاول أن تؤسس لمقارنة بين الأصولية البروتستانتية والأصولية الإسلامية هي أعمال قليلة وناذرة لكنها ذات أهمية وسنحيل، بشكل خاص، على كتاب: *الإنجيلية والأصولية في المملكة المتحدة خلال القرن العشرين*، الصادر سنة 2013 [4] تحت إشراف دافيد بيبينغتون ودافيد سوري جونز. ويوضح هذا الكتاب ضرورة التمييز بين الأصولية المسيحية القابلة للمقارنة مع الأصولية الإسلامية والأصولية الإنجيلية (البريطانية تحديدا). وحول إمكانية فهم الأصولية الكاثوليكية نقرأ على نحو خاص، كتاب: *خطوط انفلات الأصولية: تشخيص*

1-Understanding Interreligious Relations, parue sous la direction de David Cheetham, Douglas pratt, et David Thomas en 2013.

2-La France des intégristes : extrémistes juifs, chrétiens, musulmans, le refus de la république, publié par René Guitton en 2013.

3 -Brannpunkt Jerusalem: om judendom, kristendom, islam, fundamentalism, fred och forsoning i den heliga staden, publié par Sture Ahlberg en 2013

4-Evangelicalism and Fundamentalism in the United Kingdom, during the Twentieth Century sous la direction de David Bebbington et David Ceri Jones publié en 2013.

الحضور الأخلاقي للكاثوليكية، الصادر سنة 2013 [1]، تحت إشراف: ستيفان غورتز ورودولف برانكو هين و كاثارينا كلوكير، كما نقرأ كتاب: *غواية الأصولية: الإيمان والعقل في مجتمع علماني*، للكاتب هيرمان هارينغ الصادر سنة 2013. [2] وقد اقتُرحت مقارنات أخرى أكثر خصوصية، حول الموضوع نفسه، منها مثلا ما يتعلق بمفهوم *الماوراء* في الأصولية وهو ما تطرقت إليه دراسة: «*ما بعد الحياة في الأصولية*» للكاتب كيفان إيمز الواردة ضمن مجموعة تتضمن ثلاثة مجلدات بعنوان: *السماء والجحيم وما بعد الحياة: الخلود في اليهودية والمسيحية والإسلام*، الصادرة سنة 2013 [3]، والتي أشرف عليها هارولد إلينز. إن الأعمال التي كتبت حول الأصولية في ديانات أخرى غير الديانة الإسلامية تبقى مع ذلك، قليلة وناذرة منها مثلا كتاب: *باسم المعبد: إسرائيل والصعود الخارق لليهود المتنصّرين 1967-2013* لصاحبه شارلز إيندرلين الصادر سنة 2013 [4]. الذي خصصه للحديث عن «الأصولية اليهودية».

وهناك صنف من المؤلفات المثير للاهتمام، وهو الصنف الذي يتضمن منشورات تفيد أن دلالة مصطلح «أصولية» تعرضت لعملية توسيع وامتداد استعاري يستهدف حضورا في مجالات ليست بالضرورة دينية، ولدينامية دلالية مماثلة لتلك التي تكمن وراء الأصوليات الدينية. ويمكن أن نمثّل على هذه الحالة بكتاب: *قوة أصولية السوق: نقد كارل بولاني*، الصادر سنة 2014 [5] لكاتبيه فريد بلوك و مارغاريت سوميرز، وهو كتاب ينتقد المنظورات الاجتماعية والاقتصادية التي تميل إلى تحويل السوق إلى هدف ديني تقريبا وتدرجه ضمن إطار مفهومي لا نستطيع معه بتاتا فهم وإدراك مخاطره وإمكانات تغييره

1-Fluchtpunkt Fundamentalismus ? Gegenwartsdiagnosen katholischer, Moral publié en 2013 sous la direction de Stephan Goertz, Rudolf B. Hein et Katharina Klocker.

2-Versuchung Fundamentalismus : Glaube und Vernunft in einer sakularen Gesellschaft, publié par Hermann Haring en 2013.

3-Heaven, Hell, and the Afterlife : Eternity in Judaism, Christianity, and Islam, paru en 2013 sous la direction de J. Harold Ellens

4 -Au nom du temple : Israël et l'irrésistible ascension du messianisme juif, 1967-2013, publié par Charles Enderlin en 2013.

5- The Power of Market Fundamentalism : Karl Polanyi's Critique, publier par Fred Block et Margaret R. Somers, en 2014.

وتطويره. وهناك كتاب آخر نشر سنة 2013 تحت إشراف: رانجان غوش والمعنون ب: *معنى العلمانية: منظورات نقدية من أوربا إلى آسيا* [1]. وهو كتاب يتساءل حول طبيعة العلمانية، بصياغته لفرضية وجود علاقة معقدة جدا، وأحيانا متناقضة، بين الإيديولوجيات العلمانية والإيديولوجيات الأصولية. وقد حاول بول مالتبي في كتابه: *الأصولية المسيحية وثقافة التخلص من الوهم* الصادر سنة 2013 [2]، أن يبرز ويميز هذا التناقض عبر اقتراحه نقدا للأصولية الدينية، وهو نقد مستوحى من النظريات الفلسفية المابعد- حداثية، ثم أيضا «نقد النقد» المستوحى من الاستجابة للحاجيات الأنثربولوجية التي تختفي في الأصوليات الدينية. وأخيرا، فإن الأعمال التي جذبت المزيد من الاهتمامات البحثية هي المنشورات العلمية التي خاضت في المظهر اللغوي والتواصلي والسميائي للأصوليات. وفي هذا الصدد نحيل على دراسة ماسيمو ليوني «سميائيات التأليف الأصولي» الصادرة سنة 2013 [3] في *المجلة الدولية للسميائيات القانونية*، وهي دراسة حاولت الإجابة عن أسئلة من قبيل: كيف يتواصل الأصوليون الدينيون فيما بينهم؟ وكيف يتواصلون مع الخارج؟ إن طرح هذا السؤال يعد جزءا من فرضية سوسيو سميائية (اجتماعية وسميائية) يمكننا وصفها في الاتجاه المعاكس: وهكذا ففي المخيال الذي تتقاسمه غالبية الشعوب «الغربية» ينظر إلى الأصوليين في العمق باعتبارهم غير قادرين على التواصل سواء لأنهم منغلقين في انعزاليتهم الروحية الشاملة أو لأنهم يتنازلون ويتخلون عن كل أشكال التواصل لصالح العنف، ويعدّ هذا بحقّ نفيا كلّيا لكل منطق تواصلي. وعلى العكس هناك دراسات مثل *التواصل الذاتي: نقل المعرفة في زمن الأصوليات* الصادرة سنة 2013 [4] تحت إشراف ماثياس بالود وتيلو فيبر، تظهر الحاجة إلى طرح سؤال يتوخى معرفة كيف تنظم الجماعات الأصولية تواصلها سواء الداخلي

1- Making Sense of the Secular : Critical Perspectives from Europe to Asia. sous la direction Ranjan Ghosh,2013.

2-Christian Fundamentalism and the Culture of Disenchantment, publié par Paul Maltby, en 2013.

3-« The Semiotics of Fundamentalist Authoriality », publié par Massimo Leone en 2013 dans la Revue internationale de Sémiotique juridique.

Authoriality : الشرط الذي يجعل من المؤلف مؤلفا The condition of being an author

4-Autarke Kommunikation : Wissenstransfer in Zeiten von Fundamentalismen, sous la direction de Matthias Ballod et Tilo Weber publiée en 2013.

الرّامي إلى الحفاظ على تسلسلها الهرمي للسلطة وتطوره، أو الخارجي الرامي إلى الإقناع. وفي الاتجاه نفسه، لكن في السياق الخاص بباكستان هناك مؤلَّف: *الخطاب القتالي: القتالية الدينية في باكستان*، الصادر سنة 2013 [1]، للكاتب كاظم حسين الذي يتبنى منظور «دراسات الخطاب النقدي»، القريب من وجهة نظر السميائيات.

إن المنشورات العلمية التي أنجزت حول الأصوليات الدينية والتي ترتكز على الاستراتجيات الوسائطية وتحديدا البصرية منها، تعد هي الأخرى غاية في الأهمية والجدوى، ومنها على سبيل المثال: *تنظيم القاعدة بالصورة: نبوءة الاستشهاد*، الصادر سنة 2013 [2] للكاتب عبد العظيم الدفراوي ثم كتاب: *الجهادية: الخطابات والتمثلات على الأنترنيت* الصادر سنة 2013 [3] تحت إشراف: روديجير لوهلكير. إن الأعمال التي تبدو ذات أهمية قصوى هي تلك التي تقترح استراتيجيات للتواصل للحدّ من انتشار الأفكار الأصولية و لا سيما تلك المرتبطة بإشاعة الإرهاب الدولي. وسنشير على الخصوص في هذا الشأن إلى دراسة: *أصوات على الأنترنيت لمواجهة التطرف العنيف*، الصادرة سنة 2013 [4]، وهي دراسة أشرفت عليها هيئة علمية مختصة تنتمي لمؤسسة البحث والتطوير والتي تختصر في أحرف: RAND[5] وقام بتحريرها كل من: تود

---

1 –The Militant Discourse: Religious Militancy in Pakistan, publié par Khadim Hussain. en 2013.

2–Al-Qaïda par l'image : la prophétie du martyre, publié par Abdelasiem El Difraoui en 2013.

3–Jihadism : online Discourses and Representations, publié en 2013 sous la direction de Rüdiger Lohlker.

4–Promoting Online Voices for Countering Violent Extremism, étude commissionnée en 2013 par la corporation RAND et rédigée par Todd C. Helmus, Erin York, et peter Chalk .

5– تعتبر مؤسسة راند RAND Corporation مؤسسة ذات أهداف غير ربحية وتساهم في بلورة وتطوير السياسات العامة واتخاذ القرارات عبر البحث والتحليل. وتعد أكبر مؤسسة فكرية في العالم، ومقرها الرئيس في ولاية كاليفورنيا الأمريكية. وتقوم مؤسسة راند، الذي اشتق اسمها من اختصار كلمتي (البحث والتطوير Research and Development)، بجمع أكبر قدر ممكن من المعلومات، ومن ثم تحليلها وإعداد التقارير والأبحاث التي تركز على قضايا الأمن القومي الأمريكي في الداخل والخارج. كما ترتبط بعلاقات ومشروعات بحثية مع وكالة المخابرات المركزية ومكتب التحقيقات الفيدرالي. وتصب كثير من الدراسات والبحوث الصادرة

هيلموس وإيرين يورك وبيتير شالك، وهي دراسة ركزت اهتمامها على فعالية الوسائط الحديثة وشبكات التواصل الاجتماعي في نشر الإسلام غير الأصولي. وعلاقة بهذا الموضوع نذكر أيضا نص السيرة الذاتية للكاتب: أمير أحمد نصر، *إسلا@مي: كيف سرقت الأصولية عقلي وكيف حرر الشك روحي* [1]، التي تحكي قصة شخصية تظهر الابتعاد عن الأصولية الإسلامية نتيجة نهج هذه الشخصية لمسار شكي، وقد شجعها في ذلك ارتيادها اليومي لمواقع «نقدية» في الأنترنيت. وهناك دراسة تنتمي لنفس النوع الأدبي وهي التي أنجزها الكاتب: ماجد نواز بعنوان: *جذري: رحلتي من التطرف الإسلامي*، الصادر سنة 2013 [2]. وهو ما يؤكد أن:

1- عمليات ترك والفرار من تيار الأصوليات الإسلامية تمثل نسبة أهم من الميل والنزوع العاطفي نحوها. أو بالأحرى فإن؛
2- هذه العمليات تعرض، بدلا من ذلك، بأسلوب قصصي على شكل سيرة ذاتية أو سرد، نظرا لصعوبة تطوير معرفة غير ذاتية لهذه المسارات الوجودية،

ولا سيما ما يتعلق «بقضية ديودوني» التي جعلت اهتمامنا متزايدا ومنصبا أكثر على المؤلفات، الصادرة حديثا، والتي عالجت تقارب وتقاطع بعض الأصوليات الإسلامية مع معاداة السامية المتزايدة في العديد من الدول الأوروبية حيث ألمانيا وفرنسا، لدرجة تم معها مثلا، إحداث «تحالفات» ذات طبيعة متناقضة ومفارقة بين حركة النازيين والفاشيين الجدد والأصوليات الإسلامية. وارتباطا بهذا الموضوع نقرأ كتاب: *معاداة السامية ظاهرة خاصة: ابتذال المحرقة والإسلاموية وما بعد الاستعمار ومعاداة الصهيونية العالمية*، الصادر سنة 2013 [3] لمؤلفه كليمنس هني.

عن هذه المؤسسة في رسم خطة الحرب الأخيرة على الإرهاب. وتتميز مؤسسة راند عن غيرها من المؤسسات الفكرية والبحثية الأمريكية بوجود فروع نشيطة لها في أوربا ومنطقة الشرق الأوسط. (المترجم)

1 - My Isl@m: how Fundamentalism Stole my Mind and Doubt Freed my Soul. Amir Ahmad Nasr .

2 - Radical : my Journey out of Islamist Extremism, de Maajid Nawaz ; 2013

3-Antisemitism, a Specific Phenomenon : Holocaust Trivialization, Islamism, Post-Colonial and Cosmopolitan Anti-Zionism, publié par Clemens Heni en 2013 .

الأصولية بوصفها شكلا للحياة

بعدما مساءلتنا النقدية للحقل الدلالي الخاص بمصطلح أصولية في اللغات الغربية، ولا سيما في اللغة الفرنسية، وبعد انتهائنا من المراجعة الشاملة للإحالات البيبليوغرافية التي أُنجزت حول الأصولية في الفترة الأخيرة، فإن البحث المخرط في تفكير سميائي خاص حول هذه الظاهرة. إن الحاجة لوجهة النظر هذه، يعدّ شيئا بديهيا انطلاقا من المرحلتين السابقتين من التحقيق. فمن جهة، نورد أن التغيير الذي يلحق الحقل الدلالي للأصولية يقتضي منّا وضع إطار نظري قادر على توضيح المعطيات الأساسية للظواهر التي تتبدّى في هذا المجال الثقافي: أي هل بوُسعنا، رغم كل الاختلافات الناجمة عن خصوصية السياقات الدينية والتاريخية والجغرافية والسوسيوثقافية، تحديد نواة مركزية سميائية وظاهراتية تنتظم حولها كل هذه الاختلافات، وتؤدي إلى إحداث«جوّ عائلي»يمكن الكشف عنه في كل هذه التجليات التي تهمّ المعنى الديني؟ بمعنى آخر، هل نستطيع تحديد الجوهر الوجودي للأصولية الدينية؟ ومن جهة أخرى، نورد أن الإحالات البيبليوغرافية السابقة تُظهر بوضوح أنه رغم، غنى وتنوع هذه الأدبيات التي تنحو منحى تصاعديا، فإنها غالبا ما كانت تنحصر في صياغة فرضيات حول الأسباب التي تربط الأصوليات بمقتضيات اجتماعية وسياسية. لقد كانت هذه الأدبيات، في الغالب، تقترح تعديلا يجتثُّ الأصولية الدينية من جذرها ويفصلها عن مصادرها وتأثيراتها الجانبية غير المرغوب فيها. ورغم أن هذا المنظور لا يعتبر الأصولية، في جوهرها، ظاهرة دينية ، وبالتالي تجلّيا من تجليات المعنى واللغة، فإنه يظلّ غير قادر على إفهامنا طبيعتها الأنثربولوجية ومن ثمّة يكون غير قادر كذلك على تطوير معرفة مناسبة بالأسباب العميقة التي تستطيع بفضلها الأصوليات تحقيق عدوى تواصلية واجتماعية. وبكلمات أكثر بساطة، فإن المنظورات غير السميائية لم تستطع إعطاء وزن حقيقي «لمتطلبات الأصولية» ولا إلى المكانة التي تشغلها داخل الأنثربولوجيا البشرية. ولتجاوز هذا القصور في المنظور، يلزمنا الانطلاق

من تأمّل عام حول طبيعة المعنى الديني، حتى وإن كان هذا التأمّل، بالضرورة، تأملا مجردا.

إن كلّ معنى في السميائيات البنيوية يُنظر إليه باعتباره منتوجا ويتجلّى هذا لمعنى انطلاقا من نسق الاحتمالات الكامنة. والنسق هو مجموع العلاقات التي يسود بينها نظام معين. إن مفهوم العلاقة، في الواقع، يَفترض النظام مسبقا، لأنه يمكننا أن نشير إلى أن الكاوس أو الفوضى المطلقة تعدّ شيئا مستحيلا في حالة المنطق الثنائي، وفي الحالة التي تكون فيها القوى الأحادية محدودة. أما عندما يتعلق الأمر بالوحدة فقط، فإننا نتحدث معها بشكل كلّي عن الاضطراب واللاّنظام. ويمكن لطبيعة هذا النظام أن تتغير، لكن باستطاعتنا تشخيص ذلك، عادة، عبر استعارة موضعية، حيث يغلب مثلا الانتظام على اللاّ انتظام والتناظر على اللاّ تناظر والانغلاق على الانفتاح والوضوح على الغموض، وغير ذلك من التغييرات التي تلحق هذا النظام... إن الفوضى واللاّ نظام هما معاً ممّا لا نستطيع أن نمثّل لهما رياضيا وبالتالي تمثّلا فضائيا وموضعيا. كما أن فهم المعاني الكامنة والمخزونة داخل هذا النسق معناه طرح ظاهراتية التجزيء في المعنى الذي يمكّن النسق من استنباطها انطلاقا من السمات التأليفية لتجلياتها، غير أن هذا النسق لا يُظهر هذه المعاني في صورتها الكاملة. وإن كل ما لا يظهر في النسق يبقى في حالة كمون افتراضي غير معبّرٍ عنه لكن رغم ذلك فإمكانية التعبير عنه لازالت ممكنة وقائمة.

ففي التصور البنيوي للغة، مثلا، يمكن لكل كلام أن يُفهم بوصفه تجليا انتقائيا لنسق أوسع حيث يكتشف هذا الكلام، في الوقت نفسه، بعض السمات التأليفية ويشير عبر استنباط ضمني إلى الاحتمالات الكامنة غير المتجلية. وتتأسس آلية التلفظ على هذه الحركية، التي تقوم بنشر ظاهراتية – لتوطيد إيديولوجية سميائية- تتعارض بشكل كلّي مع ظاهراتية الوحي. ونقصد هنا بالإيديولوجية السميائية ذلك التصور الذي يستبطنه أفراد ثقافة ما عن المعنى واللغة والتواصل. ففي الوحي كما هو في تصور معظم الثقافات الدينية، التي يلعب فيها دورا رياديا، فإن الكلّ ُيقال دفعة واحدة دون أن يتم التفكير بتاتا في تجزيء ما قيل. وبالتأكيد، حتى في التديّن الشعبي، فإننا نميل إلى التّسليم أن الوحي هو دائما غير كامل. ومع ذلك فإن هذا النقص يُعزى إلى عدم قدرة الإنسان على استيعابه له في كليته ومردّ هذا في غالب الأحيان إلى حالة ضعفه الأخلاقي أو شعوره بالخطيئة.

ووحدهم علماء اللاهوت المابعد حداثيين إلى أورس فون بالثازار [1]، يسلّمون أن الوحي وجوديا نزل منجّما ومجزّأ إنه يخفي وينطوي على سرّ ما كلّما كان هناك كشف وإفصاح.

ففي تصورنا للمعنى المشكِّل للسميائيات البنيوية، نجد الأمر بخلاف ذلك، فالمعنى لا ينبثق من كلّية إيجابية، تظهر وتمارَس في التجلي، بل على الأصح ينبثق من كلّية سلبية تختفي في تجلّيها لكنها في الوقت نفسه تترك آثارا دالة عليها. وكما تصور سوسير فإن الكلام حدث جزئي مقارنة مع محيط السلبية غير المعبَّر عنها والمفترضة التي يطفو عليها هذا لكلام. ومع ذلك فإن هذا المحيط لم يتمّ تصوره على أنه ظلام دامس لا متناهي ولكنه بالأحرى بلّور لا نرى من لمعانه سوى أنوار جزئية والتي ما كان لها أن تحدث إلا انطلاقا من البنية الكاملة لهذا المنظور.

إن معنى الوحي جليّ وقابل للإدراك، لأننا نسلّم ونعتقد جازمين، أنه لا توجد طريقة أخرى لفهمه. فكلّ ما يمكن أن يتقرّر فقد قُرِّر، وكل ما لا يتجلّى كشيء دال فلا معنى له. وبخلاف ذلك، فإن معنى الملفوظ، يبدو واضحا ومفهوما لأن هناك علاقة، *يمكن قياسها*، تنشأ بين السمات التي يظهرها هذا الملفوظ وبين الكلّ الذي لا يشكل فيه هذا الأخير سوى جزء أو تعبير جزئي منه. ولتأسيس هذه العلاقة القابلة للقياس، يلزمنا التفكير في هذا الكلّ باعتباره نسقا، أي التفكير فيه باعتباره كلاّ عقلانيا. إن هذا يعني بالضرورة محدودية النسق، لكنها ببساطة، محدودية ليست عددية، بل هي، على الأصح، محدودية هندسية. ومن البديهي، حتى بالنسبة للمعنى المشترك، عدم التفكير في اللغة، بما في ذلك داخل الابستيمي البنيوي، على أنها مجموعة محدودة في الاتجاه الذي ستتألف فيه هذه اللغة بواسطة عدد محدود من العناصر؛ ولهذا فإن الإمكانية الوحيدة لإنتاج عدد لا متناهٍ من الأجزاء التي تُظهر النسق سوف يفنّد هذا الافتراض. وخلافا لذلك، فإن محدودية النسق تتمثّل في حقيقة أن كل تجلّ من تجلياته الكامنة واللامتناهية بشكل افتراضي يمكن أن تمتدّ إلى الكلّ؛ أي إلى كل ما يظهر ويتضح بفضل حساب أو قانون أو

1- هانس أورس فون بالتازار،urs von Balthasar قسيس كاثوليكي سويسري لأبرشية شور. ولد في سويسرا في 12 أغسطس 1905، وتوفي في 26 يونيو 1988، لاهوتي شهير عينه البابا يوحنا بولس الثاني كاردينالا سنة 1988 ولكنه توفي بضعة أيام قبل الحصول على شارات تعيينه. لقد قال عنه الكاردينال Jean Daniélou بأنه الإنسان الأكثر ثقافة في عصرنا.(المترجم)

نسبة هندسية. إن هذا الافتراض هو الذي يؤسس مفهومية المعنى: فهو دائما جزئي ومجزّأ، ومع ذلك، فهو يفترض مسبقا كلّية تتعدد بطريقة منتظمة ومنظمة. إننا نستطيع فهم معنى النص لأن هذا المعنى ليس سوى ملفوظ لكلّية منتظِمة تؤسس لتوضيح أجزائه التي لا تُعرف إلا انطلاقا من ارتباطها والعلاقة بينها. إن افتراض هذه العلاقة الهندسية، في العمق، بين الإجراء والنسق، بين تحيين العنصر الكامن (**س**) والعناصر الكامنة غير المحينة التي تسمح في هذا الكمون بإظهار هذا العنصر (**س**) هو الذي يضمن إمكانية إدراك محايث للمعنى. فالمعنى يمكنه أن يُدرك في محايثته لأنه يمكن النظر إليه ليس بوصفه وحيا نهائيا لكلّ لا نهائي، بل يمكن النظر إليه بوصفه تلفّظا لا متناهيا لكلّ متناهٍ. إذا كنا لا نفترض الطابع النّسقي للسلبية التي تختفي وراء الكلام، فإن هذا الأخير، لا يُقرأ إلا باعتباره نداء لأنطولوجيا هاربة ومُظلمة ولا عقلانية.

إن التأويلية الرومانسية، على سبيل المثال، تختلف عن تأويلية الوحي حيث تفترض الأولى فائضا لكل ما هو مسكوت عنه مقارنة مع تمظهره المجزأ والملغز، كما تختلف أيضا عن التأويلية البنيوية حيث لا تقتضي أي تقويم أو مقارنة بين تحيين المعنى وبين شكل أو مصفوفة الوحدات الكامنة غير المحينة. على العكس إنها تنفي وجود أي شكل أو قالب، يمكنه الوصول إلى تمجيد ليس فقط التنظيم الواضح والمحسوس لما لم يتم التعبير عنه، بل إلى تمجيد اللاّ التنظيم غير المفهوم لكلّ ما هو مسكوت عنه.

ومن جهة نظر سميائية واصفة، فإن التساؤل عن الخاصية المفضلة لهذه الإيديولوجية السميائية أو تلك شيء لا فائدة من ورائه. إن كل موقف تأويلي، في الواقع، يعبّر عن كمون أنثربولوجي للجنس البشري الذي يحاول أن يفرض نفسه أمام الطوارئ التاريخية والثقافية. و عوض ذلك، يجب أن نتساءل عن ماهية النتائج المترتبة عن كل إيديولوجيا في إدراكها للمعنى وترويجه وإجرائيته. وهكذا فإن كل موقف تأويلي قد أُسِّس على مسلّمات ولكن أيضا على أسئلة دون أجوبة. ففي حالة الإيديولوجيا البنيوية يكون المعنى هو المسألة التي نحاول تجنّب الخوض فيها أساسا: ولأن المعنى يتحين انطلاقا من نسق منظم، وبالإمكان قراءته أولا مقارنة مع الثاني بفضل مبدأ المحايثة الذي يضعهما في علاقة وفق منطق قابل للقياس الهندسي على الأقل. لذا فما هي القوة التي تدفع بعض عناصر النسق إلى التحيين، وتُبعد، بدلا من ذلك، العناصر الأخرى عن تأليف محتوى

يتعارض مع ما تدلّ عليه العناصر الأولى؟ وبعبارات أخرى، عندما يؤكّد المعنى نفسه باعتباره اختلافا، فلماذا يؤكّد المعنى نفسه كمعنى، بينما العمق غير الدّال فيه، لا يفرض نفسه إلا بوصفه عمقا؟ فعندما تظهر صورة ما على الشاشة، فلماذا ننظر إلى الصورة، وليس إلى الشاشة؟ إن هذا السؤال، لا يملك إجابة نهائية، لكن يمكننا معالجته انطلاقا من مستويين مختلفين. المستوى الأول وهو المستوى، الأكثر تجسيدا، ونطلق عليه مستوى بروز المعنى أما المستوى الثاني، وهو الأكثر تجريدا، نستطيع أن نسميه «إيديولوجيا البروز ». [1]

فيما يتعلق بالمستوى الأول، فإن الحاجة إلى تفسير أصل البروز تطرح مشكلة داخل إطار نظري مبني على المحايثة. ويمكن تجنب هذه المشكلة عندما نحاول فهم المعنى في أبعاده السكونية الثابتة والتوليدية، لكن المسألة تصبح حاسمة عندما يتم النظر إلى المعنى، بدلا ذلك، في بعده الحركي والتكويني. إذ لماذا يتم تحيين بعض الممكنات في حين تظل الأخرى محتملة؟ إن التعبير عن هذا السؤال بمصطلحات علم الدلالة العميق يتبدّى في الحاجة إلى إعطاء تعليل لقيم النسق.

نظرا لوجود المعنى داخل مصفوفة تحدد آفاقه، ونظرا لطبيعته العقلانية – وتنظيمه الهندسي– فما هي طبيعة الرياح التي تهبّ على هذا المحيط من الإمكانات فتنتج التوتر ثم الأمواج التي تعبُر المسار التوليدي لتجتاح وتفيض على شواطئ التجلّي النصي ولتتبدّى كشيء بارز قياسا مع سطح المياه الهادئة؟ باستثناء الاستعارة، إن التساؤل عن القيم التي تنتج، داخل النسق، شبكة منظمة وذاتية من التحيينات والاحتمالات، معناه التساؤل عن *الفاعلية* التي تقف خلف المعنى. فهل بإمكاننا أن نعطي لهذا السؤال إجابة ما، في وقت لا تزال فيه هذه الإجابة نفسها قابعة داخل منطق محايث؟

يمكننا أن نفكّر، بدلا من ذلك، أنه في الوقت الذي تحاول فيه السميائيات الحفر في عمق المعنى، فإنها تصل إلى قاعدة لا يمكن لهذه السميائيات إلاّ أن تخترقها بإنشائها لعلاقات بين النسق الآمر الذي يفترضه العِلم وبين قوى أخرى متعالية تجبره على

1 – الشيء"البارز" هو كل ما يختلف مقارنة مع سياق ما.أما إيديولوجيا البروز فهي إيديولوجيا المعنى الذي يؤيد كل ما هو جديد وكل تغيير وكل تأويل جديد. وتتعارض كما سنرى مع إيديولوجيا التكرار التي تعطي ميزة لكل ما هو تقليد ولكل إخلاص في الرسالة ولكل ما هو طقوسي وقدسي. (المترجم)

الامتثال والخضوع لتبني قِيَمها والإقرار بها. حيث إن تفسير أصل التواء المعنى هو أول تحدي حقيقي بالنسبة لسميائيات ذات طبيعة محايثة. وهذا ما يدفعنا، لحدّ الآن، إلى استخلاص أمرين أساسيين.

أمر نكون فيه قد أنكرنا بشكل فظ استقلالية اللغة الواصفة السميائية وذلك بإخضاعها لمناهج تفسيرية أخرى. ذلك أن القيمة التي أظهرها النسق السميائي هي قيمة سيتم إحداثها، مثلا، بفعل قوة خارجة عنها، والتي ستحدد طبيعتها تدريجيا باعتبارها قيمة تاريخية واقتصادية واجتماعية... إن أولئك الذين يراهنون، مثلا، على إمكانية الجمع بين المحايثة السميائية مع الفرضيات السببية للعلوم المعرفية، قد أغفلوا، مع ذلك، مظهرا نظريا أساسيا وهو: أن المحايثة تُدمّر عندما نفتحها على السببية ونربطها بقوة تتجاوز النسق وتتعالى عليه رغم أنه هو الذي يحدد نظام القيم.

وبعبارات أخرى، لا توجد طريقة دقيقة للحفاظ على منطق المقايسة الهندسية لنسق محايث مع وضع هذا النسق تحت سلطة محددة لقوة متعالية، ليس بالمعنى الديني ولكن بالمعنى الذي لا يمكننا معه قياس تلك القوة مع النسق الذي تحدده. بهذه الطريقة،لم يعد التفسير السميائي سوى خدعة، وما يلزم أخذه بعين الاعتبار هو التفسير غير السميائي الذي يمكننا اختزاله والتحكم فيه. ويمكننا أن نقارن هذا الاتجاه بجهود أولئك الذين حاولوا الحفاظ على استقلالية المستوى الرمزي في التأويلية الماركسية: يتعلق الأمر، في الغالب، بزيف فكري دون غطاء نظري يدعمه. ففي كتاب *"كانط وخُلد الماء"* يجعلنا أمبرتو إيكو نتعرف على أن البروز أو درجات الإدراك السميائي تكون مستمدة، في نهاية المطاف، من التواءات وطيات الكينونة، حيث يقترح في هذا الكتاب تأويلا سميائيا لهايدغر. ومع ذلك فما يقع في الأخير هو بالأحرى تأويل هايدغري للسميائيات، أي مزج هايدغري للسميائيات في الميتافيزيقا: فعندما نحاول تفسير أصل وتكوين المعنى في علاقته بأمر غير قياسي نكون قد دخلنا، فعلا، في تأويلية للوحي أو في تأويلية رومانسية.

أما الأمر الآخر، فيتجلى في كون الحل الذي يبدي تعارضا تاما مع ما سبق يبقى حلاّ لا ينظر إلى المعنى باعتباره واقعة سميائية لبعد غير سميائي، ولكنه بالأحرى حلّ «يستغل التعالي» انطلاقا من مجهوده الخارق في الإبداع اللساني الواصف. ولعل هذا هو ما ساهم

في تشييد السميائيات الاجتماعية والأنثربولوجيا السميائية وبعض المنظورات داخل السميائيات الثقافية والسميائيات البيولوجية [1]. ومع انبثاق مستويات الإدراك البارزة، مثلا، فإننا لا نتساءل عن القوة العصبية التي كانت وراء هذا البروز، لكننا نحاول تطوير رؤية محايثة وجوهرية لعلم الأعصاب، والنظر إليه باعتباره نسقا من المعاني. ونؤكد الشيء نفسه بالنسبة للاقتصاد: فلكي نفسّر البنيات أو التشكّلات الثقافية وتطورها في التاريخ، فإنه لا ينبغي لنا أن نربطها بعلاقات القوة المتعالية، المرتبطة بحركية السوق، على العكس من ذلك، فإننا نحاول وصف السوق، أو حتى الاقتصاد بأكمله، باعتباره نسقا سميائيا. إن هذا الخيار يتبدى، نظريا على الأقل، في الامتداد المتزايد لمجال الصراع الفكري السميائي. ففي كل مرة نحاول فيها العودة بتجليات المعنى إلى أصله التكويني المحايث، ونتساءل، في الوقت نفسه، عن القوى التي تحركه وتُسند له مجموعة من القيم، فإننا لا نتصور هذه القوى كشيء قابع فيما وراء المحايثة، ولكننا نتصورها كشيء داخل المحايثة أو بالأحرى داخل محايثة أعيد تأهيلها وتوصيفها وتوسيعها وتعقيدها للتوغل أكثر في عمق الفهم الفكري للغة الواصفة السميائية.

ويعدّ المستوى الثاني مستوى أكثر تجريدا وقد عرفناه بكونه مستوى «إيديولوجيا البروز»، أو إيديولوجيا الإدراك السميائي ويطرح هذا المستوى مشكلة أكثر تعقيدا مادام يُفضي بنا إلى بعد متناقض. إذا سلّمنا بأننا نستطيع تفسير أصل الاختلاف انطلاقا من معطيات نظرية تزداد تعقيدا للوصول إلى اعتبار أن كل ما يحيط بالمعنى يمكن النظر إليه باعتباره جزءا داخليا من النسق المحايث الذي أنتجه، وليس باعتباره قوة متعالية خارجة عنه، فكيف نتصدى لسؤال الأهمية الرمزية للاختلاف؟ لماذا يتمّ النظر إلى المعنى باعتباره منتوجا قيميا ولا يتمّ النظر إليه في غيابه؟ هل نحن مضطرون من منظور أنثربولوجي وبيولوجي للتجاوب ثقافيا مع الاختلاف لنجعل منه الركيزة الأساسية للمعنى؟ إن

1- السميائيات البيولوجية أو السميائيات الإحيائية Biosémiotique وهي فرع من البيولوجيا والسميائيات التي تقوم بدراسة كل مظاهر العلامات البيولوجية في سيرورتها الدلالية والتواصلية اعتمادا على ما تنتجه العلامات. (المترجم)

الإجابة عن هذه الأسئلة أمر أساسي لوضع ظاهرة الأصولية ضمن أنثربولوجيا سميائية عامة.

دون اختلاف، لا وجود للمعنى. إن هذا ما نكرره، دون ملل، لطلبة السميائيات في السنة الأولى بذكرنا لسوسير وهيلمسليف وغريماص. لكن التشديد على الاختلاف يكون في طريقة الإدراك السميائي والعناصر المركزية والبارزة التي تؤسّسه التي لا تميّز السميائيات البنيوية أو التوليدية وحدها. إن نموذج العلامة عند بورس كما أوّله وكشف عنه أمبرتو إيكو هو الآخر يملك نصيبا من هذا الاختلاف. فالدلالة عند بورس المعبّرة عن الوجود الإنساني تتوقف على وجود علاقة ثلاثية بين عنصر دالّ وموضوع مدلول ومؤوِّل يضعهما في علاقة وفق منظور خاص، ويتألف المؤول بدوره من عنصر دال وعنصر مدلول يدخلان في علاقة عبر مؤول جديد وهكذا دواليك في إطار سلسلة لا متناهية من الإمكانات. وتنبني الدلالة في نموذج بورس انطلاقا من سلسلة لا متناهية من العلامات يحيل بعضها على الآخر دون أن نتمكن من إيقاف تسلسلها. وقد اصطلح أمبرتو إيكو وسميائيون آخرون على هذه *السميوزيس* بـ «انفلات المؤولات». ودون أن نسير في الاتجاه الخاطئ لعلم النفس التحليلي، نستطيع أن ندرك جيدا أن هذا التعبير لا ينطوي على حياد تام. فالعلامات المؤولات يتم تمثيلها كما لو أنها لحن هارب للموسيقي **باخ** وتنشيط عصابي جوهري دائم يساهم في دفق ودفع هذه المؤولات إلى سطح المثلث *السميوزيسي* ونحو المجهول لتأخذ مسارا جديدا. وبالتأكيد فإن *العادة* في سميائيات بورس هي من يوقف هذا السباق اللامتناهي. وفي قوة هذه العادة التأويلية التي يتقاسمها مجتمع ما أو التي يعتمدها فرد ما، فإن التركيز على النموذج النظري يقع على زخم وقوة المؤول أكثر مما يقع على أهمية العادة. إن العادة تُدرَك وتمثّل، بدلا من ذلك، باعتبارها نوعا يساهم في تحجر المعنى وهو نوع لا مفرّ منه، لكن رغم ذلك لا زال يؤسف عليه باعتباره سكونا *للسميوزيس* التي تتخلى عنها الثقافات والأفراد عندما يستسلمون لحتمية الملل والتفكير التقني واليومي المألوف. وبالمقابل فإن سميائيات لوتمان هي ثناء على حركية المعنى وعلى الدينامية التي لا يمكننا السيطرة عليها لسمياء الكون وعلى المرونة الخلاقة لحدوده. إن النموذج السميائي لمدرسة طارطو يترك هو الآخر مكانا للسكون غير أنه يربطه مباشرة مع موت الثقافات ومع شللها في جسد لا روح فيه. وهكذا فإن كل

الاتجاهات السميائية الكبرى قد صيغت وفق إيديولوجية سميائية لا يتمّ بموجبها النظر إلى المعنى دون علاقته الاختلافية: فالاختلاف هو الذي يؤسس الحركية القيمية ويجعلها أساس السردية عند غريماص، والاختلاف هو الذي يحرك تدفق المؤول ويخرجه من سجنه الثلاثي عند بورس، والاختلاف هو الذي يمتد ويتجاوز كل نطاقات سمياء الكون عند لوتمان. إن المسألة، هذه المرة، لا تكمن في تحديد ما إذا كانت هذه الإيديولوجيا مناسبة أم لا من وجهة نظر أخلاقية مثلا. ففي منظور السميائيات الواصفة، أي في الجهد المفارق لأنثربولوجيا الإيديولوجيات السميائية، فإن ما يهمّ هو الكشف عن الطابع التاريخي المحدَّد ثقافيا، ومن ثم الخاصية الاعتباطية لهذه الإيديولوجية السميائية المتمثلة في إيديولوجيا البروز. إن تأكيد هذه الإيديولوجيا هو في الواقع جزء لا يتجزأ من التطور السوسيوثقافي لمسألة شديدة التعقيد نحيل عليها بشكل سطحي بواسطة لفظة «**الحداثة**». فرغم جهود المؤرخين وعلماء الاجتماع، فإن السميائيات هي الكفيلة بتقديم تعريف نظري، وبالتالي تعريف كوني لمفهوم الحداثة: فالحداثة هي مجموع ظواهر المعنى حيث تكون الإيديولوجية السميائية المهيمنة هي إيديولوجيا سميائيات البروز أو إيديولوجيا الأشكال البارزة. فالحداثة تؤكد بوصفها شعورا دالاّ على التوتّر والانقباض كل ما هو تكرار ورتابة وانحراط غير واعٍ وثبات ونقص في الضغط الحركي وعدم وجود دافع للتغيير؛ إن الحداثة، بخلاف ذلك، ينبغي أن تؤكد على الفرح ونشوة الانزياح وكل ما ينتج بروزا بواسطة حركة لا يمكن التنبؤ بها أساسا.

تسمح لنا هذه الثنائية بربط مستويي التفكير السالفين اللذين حاولنا سبر أغوارهما. فمن جهة، نورد أن السميائيات البنيوية وجدت صعوبة في إدماج وصف داخل محايثة نموذجها التفسيري لأصل القيم أو الأكسيولوجيا، لأن هذا الأصل كما يبدو يتحول باستمرار خارج النسق المحايث. ومن جهة أخرى، وعلى مستوى آخر، يمكننا أن نتساءل عن السبب الذي يجعل هذه الصعوبة قائمة وهو: أن السميائيات المدعومة، بواسطة الإيديولوجيا السميائية للبروز أي بواسطة إيديولوجيا الحداثة، يجب أن تترك بالضرورة، المكان داخل نسقها، لإظهار التباعد والانزياح، هذا التباعد لا يمكن أن يجد أصله إلا في التعالي، أي في الحرية. وفي مواجهة مسألة تفسير أصل وتكوين المعنى تصطدم السميائيات بثنائية يذكرنا شكلها الخارجي عندما نقترب منها بالشكل الخارجي لمسألة

لاهوتية النعمة. وتسلك هذه الثنائية مسلكين: الأول يتدفق فيه المعنى من تعالٍ لا يمكننا الإمساك به، رغم علمانيته، والثاني يتكوَّن داخل محايثة المسار التوليدي، رغم تناقضه مع الإيديولوجية السميائية البانية لكل النسق البنيوي، ثم كل النسق الحداثي، باعتباره إيديولوجيا سميائية للحرية. إن أولئك الذين يدرسون الأصولية الدينية وأولئك الذين يفسرون التطور في علاقته بإيديولوجيا الحداثة المتطرفة التي سيطرت على الكوكب بعد نهاية الحرب الباردة، لم يطرحوا، بتاتا، هذا السؤال رغم بساطته وهو، إذا كانت الأصولية ردّ فعل على بعض مسارات التطور ثقافات الحالية ولا سيما الثقافات التي نطلق عليها غربية فلماذا تجلى رد الفعل هذا في بناء خطابه عبر اللجوء النسقي إلى التقاليد الدينية؟ وبتعبير آخر، لماذا يكون ردّ الفعل تجاه الحداثة المتطرفة غير ظاهر في مجالات خطابية أخرى، مثلا الانضمام إلى إيديولوجية التقدم الثوري مثل اليوطوبيات الماركسية للنصف الثاني من القرن العشرين؟ إضافة لذلك، في مجال الديانات دائما، لماذا لم تستخلص هذه المعارضة الشرسة إيديولوجيتها من لا هوت التحرير كما تم تطويره خاصة في سبعينات القرن العشرين ليس فقط في الديانة الكاثوليكية ولكن أيضا في ديانات أخرى بما فيها الإسلام؟ إن الإجابة عن هذا السؤال لا يمكن أن تكون إلا متعددة ومن ثمة لا يمكنها إلا أن تستند على دعامة عامة ذات طبيعة سميائية: إن المعارضة أو المقاومة الثقافية للحداثة المتطرفة، في جميع مظاهرها وتجلياتها، قد تم توجيهها بواسطة خطاب ديني، لأن الأديان من وجهة نظر تاريخ الثقافات البشرية وتطورها، هي الخزان الأكثر غنى والأكثر انسجاما لإيديولوجية المعنى التي تتعارض بشكل جدري مع إيديولوجية البروز التي تؤسس هي الأخرى، كما رأينا للتو، ابستمولوجيا المقاولة السميائية.

كيف يمكننا تمييز هذه الإيديولوجيا المضادة إذن؟ إننا نستطيع أن نحددها باعتبارها إيديولوجيا سميائية للتكرار. فمن منظور النموذج السميائي لغريماص غالبا ما كانت هذه الإيديولوجيا تعتمد، كما رأينا للتو، على تأويلية الوحي: فالقرآن الكريم، والكتاب المقدس، والإنجيل، والتوراة، وكتب الفيدا، ليست ملفوظات تم بناؤها انطلاقا من اختيار مجموعة من الإمكانات والاحتمالات تقدم للناس- وحتى الألوهية- على هيئة لغة ما. كما أنها ليست أيضا نصوص على الإطلاق، لأن مفهوم النص يتضمن مسبقا، حتى في تعريفة الاشتقاقي، نسج المعنى انطلاقا من نسق مؤلف من اختيار المواد، والإطار،

والألوان. كما أنها ليست أيضا علامات، لأن العلامة، رغم التغييرات التي تلحق تعريفاتها، فهي دائما شيء يحيل على شيء آخر، إنها تحيل على غيرية لا تحتوي عليها بالكامل. إن المعنى المتوفر لدينا في تأويلية الوحي أي المعنى المتعالي في كليته، يتوزع في الكتاب المقدس دون عائق، إلى أن يصير بالفعل، تجسيدا نصيا للتعالي. إن الاستحالة أو الحلول [1] هي ربما الاستعارة الأكثر ملاءمة لتفسير وجود المعنى في الكتاب المقدس حسب الإيديولوجيا السميائية للتكرار: فالقربان لا يعني جسد المسيح. بل هو جسد المسيح بالذات. إن أولئك الذين يرون أنه علامة، وإحالة على التعالي، لا يؤمنون في معجزة وسر القربان المقدس، أو لديهم تصور حديث، بروتستانتي، يتناقض مع ما يعتقدونه. إننا أمام سلسلة من الاستنتاجات التداولية الناجمة عن الوضع غير السميائي للكتاب المقدس: فلا ينبغي أن يؤول أو يترجم، ينبغي أن يكون، بدلا من ذلك مكررا، ومَتْلُوّا، أي محفوظا عن ظهر قلب، و الأفضل من ذلك أيضا إعادة نسخه وإيلاء الأهمية إلى إعادة إنتاجه ليس فقط على مستوى محتوى الكتاب بل على مستوى شكله أيضا، ومستوى تجليه وتمظهره على حد تعبير السميائيين التوليديين. إن التعارض إذن بين

---

1 – تعني الاستحالة أو الحلول، La transsubstantiation حرفيا، تحويل مادة إلى أخرى. و يقصد بالمصطلح عند بعض المسيحيين (خاصة الكاثوليكيين) تحويل الخبز والخمر إلى جسد ودم المسيح خلال القربان المقدس. وعلى المستوى الديني فإن المسيحيين الكاثوليكيين الرومانيين والأرمن الكاثوليكية والمارونيين يستعملون مصطلح "الاستحالة" ليفسروا لنا أنه في القربان المقدس، يحضر الخبز والنبيذ، لتكريس القداس، "بشكل واقعي وحقيقي ومحول" إلى جسد ودم المسيح، مع الحفاظ على خصائصهما الفيزيائية أو النوعية الأصلية (الطعم والرائحة) .وفيما هم يأكلون أخذ يسوع الخبز وبارك وكسر وأعطى تلاميذه وقال: خذوا كلوا، هذا هو جسدي. وأخذ الكأس وشكر وأعطاهم قائلاً: اشربوا منها كلكم لأن هذا هو دمي الذي للعهد الجديد، الذي يسفك من أجل الكثيرين لمغفرة الخطايا" (متى 26: 26 – 28). وتعلم الكنيسة الكاثوليكية عقيدة الاستحالة، التي تقول أنه عندما ينطق الكاهن بكلمات التكريس فوق الخبز والخمر في القداس، تتحول هذه إلى جسد ودم الرب الحقيقي، نفس ولاهوت الرب يسوع المسيح. وتشكل الاستحالة أساس عبادة هذه الكنيسة، التي تعلم أنه بعد تكريس الخبز والخمر تتحول هذه إلى ذات الرب يسوع ابن الله، لذلك يصلي الشعب إليه ويعبده. ويؤمن المسيحيون الحقيقيون أنه يجب عليهم أن يأكلوا جسد الرب ويشربوا دمه إن هم أرادوا الحصول على حياة أبدية ثابتة فيهم. ويعلمون أيضا أن هذا يتم عن طريق الإيمان بيسوع المسيح كابن الله. وعن طريق قراءة وحفظ الكتب المقدسة. وأيضاً عن طريق الإصغاء إلى الوعظ المبني على الإنجيل المقدس. ويتم هذا أيضاً عندما يصلون إلى ألآب باسم المسيح، وعندما يشتركون في تناول الخبز والخمر في الشركة المقدسة (وهو لا يزال خبزاً وخمراً) طاعة للوصية: "اصنعوا هذا لذكري". للمزيد ينظر: http://www.kalimatalhayat.com/church-related/73-the-lord-supper/1273-chapter21.html (المترجم)

التأويلية السميائية وتأويلية الوحي لا يمكن تحديده بشكل واضح: إن التجلي بالنسبة للنموذج التوليدي لا يمثل شيئا، لأنه ليس سوى حصيلة لمسار توليدي فهمناه في محايثته؛ أما بالنسبة للمؤوِّل الأصولي فعلى العكس، فإن التجلي يمثل كل شيء، لأنه لا فرق عنده بين مستوى التعبير ومستوى المحتوى وبين دال بشري ومدلول إلهي. فالدال حدث إلهي بالفعل، يلزم الحفاظ عليه دون تغيير لأن الألوهية تنزاح دون إرغامات ودون اختزالات ساطعة في كمالها. إن فهم دلالة الكتاب المقدس ليست أمرا مهما، لأنها لا توجد فقط سوى في امتلاء الدال الثابت والساكن.

إن التعارض بين الإيديولوجيا السميائية للبروز والإيديولوجية السميائية للتكرار، من جهة نظر نموذج بورس، لا يبدو أقل وضوحا: إن تصنيف أنماط العلامات المنسوبة لبورس هو تصنيف في نهاية المطاف لا يمكن أن يكون إلا مبنيا على قيد التدرج في العلاقة التي يقيمها المؤول بين *الماثول* والموضوع. إذا كان الرمز نتيجة علاقة اعتباطية، فإن الأمارة هي الأخرى، تستجيب لتحديد صارم؛ إنها تستجيب للضغط الخارجي الذي يمارسه الموضوع على المرجع، في حين تشكل الأيقونة- نمط العلامة عند بورس الذي وجدنا صعوبة في تحديدها- مستوى توسطيا بين الرمز والأمارة، إنها علامة مؤولة محكومة بقوانين التشابه. ففي الإيديولوجيا السميائية للتكرار يحاول الكتاب المقدس بالتأكيد الانفلات من كل منطق رمزي، كما أنه يحاول التملص كذلك من الحركية السميائية للأيقونة. إن الكتاب المقدس عند الأصوليين لا يشكل تمثيلا حقيقا صادقا لكنه بالأحرى عرض وتقديم وبعبارة أحسن إنه حضور. ومن المفيد جدا أن ننسب لهذا الكتاب الوضع السميائي للأمارة، للأثر، إلا أن الدال، في الأمارة أيضا، كما هو معلوم، لا يختلط بالمدلول إنه يتميز عنه بشكل دقيق عبر اختلاف نوعي في المكان والزمان والمادة، وحتى في صور الألوهية الخارقة كما هو الحال بالنسبة لكفن تورينو[1]، أو باقي الأيقونات

1- كفن تورينوle Saint Suaire de Turin هي قطعة كتانية يقال بأنها كانت الكساء الذي كفن به السيد المسيح أثناء دفنه. تم الاحتفاظ بهذه القطعة منذ عام 1578 في المصلى الملكي بكاتدرائية سان جيوفاني باتيستا في مدينة تورينو الإيطالية. ويبدو أن الكفن الذي يعتبر من أهم الآثار المسيحية وأكثرها احتراما يبصم على قماشه ملامح أو صورة رجل ملتح ، طويل الشعر يحمل جسمه جروحا تتوافق مع عملية الصلب. ويستدرج الكفن سنويا ملايين الزوار إلى كاتدرائية تورينو حيث يُحفظ في صندوق ذي تصميم خاص ومكيف. ولم يتمكن العلماء

الدينية التي تجسد بصورة كاملة الآلية السميائية للأمارة، ولا تترجم ما يكونه الكتاب المقدس بالنسبة للأصولي.

إن الكتاب المقدس لا يمثل بالنسبة للأصولي وصفا رمزيا للتعالي ولا صورة عنه أو أثرا ناجما عنه. إن الكتاب المقدس هو وجه التعالي والتنزيه بتعبير ليفيناس. إن ما نستنتجه هو انقلاب جذري في النسق الثّيمي الملقى على العلاقة بين انفلات المؤولات والعادة. إن كل من يبتعد عن العادة في الإيديولوجيا السميائية للتكرار يعدّ خطأ، أي لا معنى له. إن الثقافة تعبر عن ذاتها بشكل دائم في قوانينها وسننها، وأي استثناء، هو في نهاية المطاف، علامة على الشّر. أخيرا إن ما يحلم به الأصولي ضمنيا هو العودة إلى حالة الضرورة القصوى، حيث لا حاجة إلى الحرية. إنها طبيعة خالية من كلّ أثر دال على الحداثة: إن هذا هو الهدف النهائي والشرعي للأصولي.

وبالمثل، في إطار سميائيات لوتمان، فإن كل ما يوضع خارج سمياء الكون الثابت للأصولية الدينية يمكن اعتباره اضطرابا أو تأثيرا سلبيا، يستطيع إذا ما حاولنا حذفه أو استبعاده، إقحام توترات في النسق المثالي للوجود المكرّر.

ونظرا إلى أن الوصف السميائي لإيديولوجيا التكرار، غالبا ما يمنع مفسريه، والمعلقين عن الابستيمي الأصولي، ما يجعل الوصول إلى مجتمع التكرار المطلق أمرا في غاية الصعوبة، كما يصعب أيضا الوصول إلى مجتمع البروز المطلق. ويحكي الكاتب الباكستاني محسن أحمد في رواية منشورة باللغة الإنجليزية سنة 2007 بعنوان *الأصولي المتردد* التي ترجمت إلى اللغة الفرنسية بعنوان قد يبدو أقل أناقة وهو *المتطرف رغما عنه*، بطريقة أكثر فعالية وتأثير وممزوجة بسخرية لاذعة ومريرة عن حياة شاب باكستاني عاش حياة السقوط والخيبة في كنف الأصولية الإسلامية. في هذه الرواية التربوية المعاصرة يتعرف البطل قبل كل شيء على المفاتيح السحرية الكاشفة للنجاح المهني الاقتصادي والاجتماعي في عالم الاقتصاد المالي المُعوْلم الموجَّه من قبل الولايات المتحدة، وبعد إخفاق وجودي تحول شيئا

قط من تفسير الأثر الذي تركته على قطعة القماش صورة رجل يحمل جسده آثار مسامير دُقت في رسغيه وقدميه ووخزات الشوك على جبهته وجرح رمح في صدره. للمزيد ينظر

http://www.kafanalmassih.org/FAQ.php

(المترجم)

فشيئا وبكيفية متزايدة ضد النظام الذي دعمه وأغناه إلى أن انزلق ووجد نفسه داخل خلايا التنظيمات السرية والكفاح الجهادي. إن الرواية في تأويلها للأصولية الإسلامية، باعتبارها رد فعل على العولمة التي كثيرا ما جعلتها موضوع نقاش وانتقاد، بينت رغم ذلك وبطريقة واضحة وبديهية الجدل المفارق والمنحرف أحيانا الذي يمزج بين إيديولوجيا التجلي أو البروز وإيديولوجيا التكرار، خاصة وأن هذه الرواية تقترح محكيا يستعرض بجلاء كامل يوطوبيا أسلوب العيش ويوطوبيا أسلوب الحياة المتكررة تماما ويظهرهما في غموضهما. إن الوصول إلى أي جماعة، حيث كل تجلّ أو ظهور لها يكون باهتا إلى حد التخلص منها؛ يصنع كائنا بشريا لا يمكن أن يكون سوى ناقل سلبي لتقليد أو تراث ديني يمكن النظر إليه هو الآخر باعتباره ناقلا ساكنا للتعالي: إن هذا ليس مجرد حلم، بل هو بلاغة. فعندما نحلل بنية السلطة التحكمية داخل الجماعات الأصولية، بما فيها السلطة الجوهرية للتواصل داخل الجماعة وخارجها، فإننا نلاحظ على الفور بأن آثار إيديولوجية التجلي تبقى مترسبة في نمط حياة وعيش الأصولي وغالبا ما تشغل مكانة أساسية لديه. إن الجماعات الأصولية، في كل الأديان، ليست جماعات دون زعيم، على العكس من ذلك، إن العناصر الفاعلة، يمكن التعرف عليهم داخل التنظيم انطلاقا من الأدوار التي تسند إليهم بوصفهم زعماء رأي وأمناء على التقليد الحقيقي، بما فيهم القادة العسكريون عندما يتعلق الأمر بجماعة في ميدان القتال. إن هؤلاء الزعماء يختارون ويتخذون قرارات وينتقون ويحددون المناسب من الخيارات ويؤولونها. ومع ذلك فإن قوة الإقناع لديهم ترتكز على موهبة خارقة وكاريزما لا تعتمد على بلاغة التجلي، بل على بلاغة التكرار: فكل ما قام به الزعيم، وقاله، وأمر به يُقدم لا بوصفه خيارا ولكن بوصفه نتيجة منطقية لمسار المعنى الذي يحدث مباشرة دون بدائل ممكنة للتعالي.

إن العديد من المعلقين حول الأصولية المعاصرة، الغارقين كما لو أنهم ينتمون لإيديولوجية البروز، لديهم صعوبة في إدراك أن بلاغة التكرار يمكن أن تمتلك قوة إقناعية فائقة، حتى أكثر من، بلاغة البروز التي تعبّر عن نفسها دون كلل في الخطاب الدعائي الإشهاري. إن الخطاب الإشهاري يمنح هوية و يسعى إلى الحصول على لذة عبر سراب أو وهم الحرية. إن الخطاب الأصولي يشيد الانتماء ويحث ويحرض على السعادة عبر وهم الحاجة. إن هذه البلاغة الثانية تستطيع أن تمتلك قوة أقوى وأبلغ من الأولى

والحصول على نتيجة فعالة أكثر من نتيجة الأولى في سياقات تاريخية وسوسيوثقافية خاصة. وهكذا فداخل نسق معرفي يهيمن عليه البروز، هناك شيء لا يقاوم الرغبة في الاستسلام للتكرار، مثلما هو الحال في مجتمع حيث التكرار هو المهيمن وهو يرسم طريقه للبروز. إن هذا الأخير يمكن أن يصبح هدفا لوجود أو حتى لثورة ما.

إن هذين الصنفين البلاغيين يساهمان في استخلاص نتائج غاية في الأهمية تخص الاستراتيجيات الإقناعية المعتمدة لنشر المحتويات وجعلها هدفا للعدوى والتعميم. ويمكن للاستراتيجيات التواصلية لبلاغتي البروز والتكرار أن توضع داخل ثنائية تراعي مفهوم الغيرية. وقد أشرنا للتو أن إمكانية التناوب ووجود بديل هو أساس الابستمولوجيا البنيوية، فضلا عن الابستيمي الثقافي الذي يكمن وراء ذلك. إن المعنى لا يمكن تصوره إلا في علاقة غير متوقعة يلفها الظلام والغموض، إن هذه الشرارة الغامضة، الملقاة داخل توازن البنية، تبعث الروح فيه من جديد عبر الإشارة إلى نظام القيم. والخلاصة أن الغيرية التي تولد المعنى يلزمها امتلاك دلالات موحية ومنتشرة. فلا حياة دون معنى. ولا معنى دون غيرية تؤسسه. لذلك فإن كل الاستراتيجيات التواصلية للبروز تنتشر حول مبدأ الجدة: فالمجهول الوافد من التعالي هو دائما إيجابي ودائما موضع ترحيب. وعلى العكس من ذلك، فإن الاستراتيجيات الإقناعية للتكرار تنتظم وتتحلّق حول أسطورة العدو. إن كل ما يشكل مصدرا بديلا، وكل ما يكسر جمود النسق وثباته عن طريق إدخال قوة خارجية هو ما يولّد مبدأ الاختيار، وبالتالي يولّد حرية، وهذا مُدان وينبغي رفضه بقوة أو حتى بعنف.

إذا كانت إضافة صديق جديد تشكل مصدرا غامضا لمعنى التذرع بالممارسات الإلهامية ومنفصلة عن الاستراتيجيات التواصلية للبروز، فإن إقناع أي أصولية لا يمكن تصوره دون عدو. فالعدو هو المضاد الوحيد للذات الأصولية بامتياز، ووجوده ضروري بالنسبة لها ليس بسبب أنها في حاجة إلى كبش فداء، ولكن لأن الأصولية قد تحتاج باستمرار إلى تقديم تقارير أو حتى تجسيدها في محكياتها واتصالاتها، إن القوة الهائلة لهذه العدائية تتبدى في كسر وشرخ سلام التكرار. وسواء اختارت اليهود والعرب والمثليين أو المؤمنين المعتدلين هدفا لعدوانيتها، فإن ما يهم في الأصوليات ليس هو الهوية العرقية أو الدينية للأعداء الذين تواجههم، ولكن في الحقيقة لأن لديها عدوا ينبغي مهاجمته، عدو

يجسد مبدأ الغيرية يقوض وينسف مصدر رزق الأصوليات. وفي الصفحات التالية سيتم تحليل بعض ظواهر المجتمع والثقافة الفرنسية والفرانكفونية الحالية انطلاقا من هذا الإطار النظري.

سميائيات كونيل [1]

لقد تم الإعلان عن ظاهرة ديودوني للوهلة الأولى، على الصعيدين الوطني والدولي ليس عبر التكرار ولكن عبر إبراز إشارة «كونيل». وبغض النظر عن تحديد شرعية المسألة، وما إذا كانت هذه الإشارة قد تم إحداثها من قبل الممثل الكوميدي الفرنسي أم لا، فإننا ندين له، دون أدنى شك، إعادة إعطاء معانٍ جديدة لهذه الإشارة والدلالة التي تدرك وتحضر بها في سمياء الكون الفرنسي الحالي. ورغم أن « قضية ديودوني » شكلت حدثا لعدد كبير جدا من التعليقات الصحافية والتحليلات الفكرية العالمة، فإنه لا أحد من السميائيين، في حدود علمنا، حاول البحث في ما ينبغي أن يكون عليه موضوع نموذجي للتحليل السميائي، أعني تحليل هذه الإشارة ماذا يمكننا أن نقول عنها وعن دلالتها من منظور السميائيات؟ هل يمكننا أن نضعها في علاقة مع ما حاولنا اقتراحه ضد الأصوليات وبلاغاتها؟ إن إشارة كونيل مثل أي ظاهرة تواصلية تشتمل على مستويين هما: مستوى التعبير ومستوى المحتوى. فعلى مستوى التعبير، فإنها تُمفصِل الجسد باعتباره مادة تعبيرية مع شكل دال (مبتكر أو أعيد ابتكاره من لدن ديودوني) لإعطاء مادة تعبيرية إلى المحتوى المدلول. وكيفما كان الجسد فإن المادة التعبيرية التي

1- SÉMIOTIQUE DE LA QUENELLE اخترع ديودوني إشارة "كونيل" أو إيماءة الذراع الممدودة التي انتشرت بين مختلف فئات الشعب الفرنسي، وأصبحت بالنسبة لهم رمز الغضب على النظام ومعارضته والوقوف ضده. وقال ألان سورال الكاتب والسينمائي الفرنسي السويسري "عندما نرى عناصر من الشرطة والجيش ورجال الخدمة المدنية والطلبة يقومون بتلك الحركة التي تعبر عن التمرد ضد الذين يقفون ضد ديودوني، فإن السلطة تقلق. اعتبرها روجي كيوكيرمان، رئيس المجلس التمثيلي للمؤسسات اليهودية لفرنسا في تصريح للإعلام الفرنسي بأنها "حركة النازية مقلوبة". وأضاف: لقد أصبح "ديودوني محترف معاداة السامية، وهو يستعمل مهنته لإنتاج ونشر معاداة السامية وهذا مقلق جدا."(المترجم)

يستخدمها ديودوني وأتباعه لترويج وتصريف هذا المحتوى لا تخلو من أهمية. إن المحتوى «جزء لا يتجزأ » من أولئك الذين يظهرونه مما يتيح فرصة التعرف عليه في شموليته وذلك عبر التحام تامّ بين قصدية تواصلية فردية وجسد يحاول إيصال رسالة ما؛ إن الجسد كلّه، في إشارة كونيل، هو من يتحول إلى شبكة تواصلية اجتماعية تعبّر عن إيديولوجيا ديودوني. وهذا، كما سنرى، له تأثيرات لا يمكن إهمالها حول خاصية جوهرية لإشارة كونيل، أعني قدرة هذه الإشارة على التكاثر وعلى الانتشار المفرط في سمياء الكون الفرنسي. إن مستوى تعبير هذه الإشارة لا يتكوّن فقط من مادة، الجسد، بل أيضا من شكل دال ينسجم مع هذه المادة الجسدية وفق سنن محدد. هاهنا يظهر ابتكار الزعيم: إننا ندرك أن إقناع مجموعة من الأفراد على إنتاج الإشارة نفسها أو سلوك الجسد نفسه معناه ممارسة رقابة قوية حول قواه الإدراكية والوجدانية وحول أفعاله. وتعرف كل نزعة شمولية بإقحامها لإشارة خاصة دالة على التحية، وهي إشارة تسمح لدعاة الإيديولوجيا بالتعارف فيما بينهم وتأكيد انتمائهم إلى المجموعة الشمولية. إن العلاقة بين هذا النوع من الإشارات والإيديولوجية السميائية للتكرار هي علاقة واضحة وبديهية: فمن جهة نبين أن الإفصاح عن الجسد من خلال الإشارة الشمولية يسمح لأولئك الذين يظهرونه بالانعزال داخل جماعة لتشكيل فئة منغلقة قادرة على مقاومة كل الضغوط الخارجية. ومن جهة أخرى، وخلافا لما سبق، فإن الإشارة الشمولية تجسّد إيديولوجيا التكرار بالمعنى الذي لا يمكنها أن تخضع لأي إعادة صياغة فردية: فعندما ننخرط في المجموعة الشمولية، يكون الجسد هو القناة الأولى لإظهار التنازل عن كل فردانية لصالح إيديولوجيا الجماعة.إن الشريط السينمائي الألماني«الموجة» [1] الذي أخرجه دوني غانزيل

1- [« La vague »]Die Welle تدور أحداث الشريط، المقتبس من حادثة حقيقية، في إحدى المدارس الثانوية في ألمانيا، حيث تقرر إدارة المدرسة تنظيم أسبوع خاص لتعريف الطلبة على الأيديولوجيات المعاصرة المختلفة، فيتم تقسيم الطلبة إلى مجموعات ويركز الفيلم على المجموعة التي تتخصص في النظام الأوتوقراطي الاستبدادي. يبدأ المدرس في شرح آليات نظم الحكم الأوتوقراطية وأهم المبادئ التي ترتكز عليها، وأمام التفاعل الكبير من قبل الطلبة وأسئلتهم الشغوفة حول الموضوع، يقرر المدرس أن يطبق نموذجا عمليا يمكن الطلبة من فهم الأوتوقراطية بشكل أفضل، فيبدأ في محاولة فرض الطاعة والانضباط على الطلبة؛ فالتأخير عن الصف والمحادثات الجانبية غير مسموح بهما والكلام لا يكون إلا بعد طلب الإذن. التجربة التي بدأت أول الأمر بشكلٍ سلميّ وارتكزت على مفاهيمٍ من قبيل النظام والجماعة، تطوَّرت خلال أيامٍ قلائل لتتحوَّل إلى حركةٍ بما تعنيه

والذي عرض في القاعات سنة 2009 يحكي قصة تجربة «سيكولوجيا الحشود»: حيث المدرس يشجع تلاميذه على محاكاة تنظيم تابع لجماعة أو حركة إقصائية ما، مع ما يترتب عن هذا الوضع من عواقب غير متوقعة ومأساوية. ومن بين الأمور الأساسية اللافتة للنظر في هذا المسار هو ابتكار تحية واعتمادها بشكل معمم، إنها موجة من نوع ما، تحاكي هذه التحية عبر حركة متموجة للذراع اليمنى وهي ما يطلق عليه نوع البريك دانس [1] وهكذا فإن سلطة إشارة اليد هذه في الحياة السياسية المرتبطة بالمعيش اليومي أمر لا يمكن عده والتكهن بنتائجه: فعندما تترجم وتحلّ الإيديولوجيا في الجسد، فإنها تتحجر بعيدا عن رغبة هذا الجسد.

بطبيعة الحال إن الشريط استوحى واستمد أفكاره من الأنظمة الشمولية التوتاليتارية الاستبدادية للقرن العشرين، إلا أن المعادلة بين إشارات الجسد والتضمين الإيديولوجي ليست ابتكارا جديدا. فإذا كانت فاشية القرن الماضي قد استعادت تحية الإمبراطورية الرومانية وحاولت أن تضمّنها إيحاءات جديدة، فإنه في الثقافات الدينية، وبطريقة نسقية

الكلمةُ من معنى، حملت اسمًا هو: **الموجة**.لم يكد اليومُ الثالث يمر إلا وبدأ الطلابُ في إقصاء المُختلفين معهم في الفكر ومضايقتهم. عندما تصاعد الوضعُ على هامش دورة طلابية في لعبة كرة الماء، قرر المُدرِّس إيقاف التجربة. لكن كان ذلك مُتأخرًا للغاية. لقد خرجت الموجةُ عن السيطرة منذ أمدٍ بعيد!. تمكن المخرج **دوني غانزل** ببراعة عن طريق شريطه من أن يوضح أنه حتى في أكثر المجتمعات تمسكا بالحرية والديمقراطية، تبقى تلك الديمقراطية هشة وقابلة للتحول في وقت قصير جدا إلى النقيض عن طريق الدعاية والإيديولوجيا والكاريزما، خصوصا لدى جيل الشباب. فالمجتمعات المتقدمة تعاني من حالة فراغ تتسبب فيها الفردانية والتفكك الاجتماعي، وهذا وضع لا يمكن أن يستمر للأبد، كما يعتقد المخرج، والخوف كل الخوف أن تظهر موجة جديدة من الأيديولوجيات الشمولية لتحاول شغل الفراغ الحالي. (**المترجم**).

1- البريك دانس بالإنجليزية (Breakdance) :وهي رقصة التكسير تكون على موسيقى الهيب هوب أو الراب وتطورت باعتبارها جزءا من ثقافة الهيب هوب .ويمكن تعريفها كذلك بوصفها التعبير الجسدي المصاحب لموسيقى الراب. وتعتبر من أصعب أنواع الرقص وأكثره خطورة وتعتمد على الإيقاع وتتعب التفكير ولكنها تقتضي جسدا قويا في ممارسته. أصبحت هذه الرقصة منتشرة في جميع مناطق العالم حيث، تنتشر في أمريكا وجنوب أفريقيا، كما اشتهر بها الكوريون أيضا والفرنسيون والبرازيل وإيطاليا وهولندا وفي الدول العربية نجد تونس والمغرب والجزائر والأردن وسوريا. ا(لمترجم)

ينحني الجسد ويخضع لطقوس جديدة ليعلن انخراطه اللامشروط في إيديولوجية روحانية. وهكذا «ابتكرت» المسيحية طريقة جديدة لتنظيم الجسد واستقامته في الصلاة («انطلاقا من علامة الصليب») لتميز نفسها عن اليهودية وهو المنطق نفسه الذي اتبعه الإسلام لكي يميز به نفسه عن اليهودية والمسيحية. إن تأسيس ديانة ما معناه وضع صياغة تعبيرية جديدة تهمّ جسد المؤمنين، بكيفية تمكنهم في الوقت نفسه من الظهور والتعبير عن إيمانهم. إن القوة التواصلية لإشارة كونيل تكمن في الحركية نفسها: فأولئك الذين ينتمون إلى فكر ديودوني غير مجبرين على الامتثال لخطورة تصريحات شفهية، لا يمكنها أن تكون إلا ذاتية؛ إنهم ببساطة قادرون على تحويل جسدهم إلى علامة دالة على انخراطهم اللامشروط وهي علامة تعد بمثابة نسخة لجسد الزعيم.

إلا أن ما يميز الصياغة التعبيرية لإشارة كونيل، أي الشكل الذي تعطيه هذه الإشارة للجسد، ليس هو تلك الدينامية العامة والنمطية للإشارات الرمزية والطقوسية فقط، بل هناك أيضا سمات خاصة ومحددة تميزها، رغم أن المدافعين عن ديودوني يسعون إلى إنكار ذلك كون إشارة كونيل هذه، تشبه تحية نازية. إن هذا يستدعي، حتما، تناصّا إشاريا، في كل مرة يقوم فيها مؤيد ديودوني بإعادة إنتاج الإشارة: أي التناص بين إشارة كونيل وتحية هيتلير. وتحاول السميائيات بطريقة صورية إثبات أن هذا التشابه، والتناص الإشاري الناجم عنه، لا يمكن النظر إليهما باعتبارهما نتاج انطباع ذاتي، بل هما نتيجة عاملين. العامل الأول يظهر أن التصميم التشكيلي لإشارة كونيل يشبه بقوة وإلى حد كبير تصميم التحية النازية: أي قوة وصلابة الذراع اليمنى الممدودة في اتجاه المحاوِر مع يد مفتوحة وصلبة على نحو مماثل، الأصابع هي الأخرى ممدودة جيدا لإظهار قوة دفع الذراع. ودون شك إن هذه السمات التشكيلية تقترن بسمات أخرى تعيق وتشوّش على التشابه: فالذراع موجهة نحو الأسفل وليس إلى الأعلى؛ فيما الذراع اليُسرى توضع على الصدر تقترب من لمس الكتف الأيمن. ومع ذلك، فإن أولئك الذين يصفون إشارة كونيل بأنها «تحية نازية مقلوبة» ليسوا مخطئين. فمن منظور السميائيات، نورد أن التوازي بينهما صار مؤكَّدا سواء من حيث البنية التشكيلية للإشارة التي وصفناها للتو، أو من خلال علاقتها مع مستوى المحتوى. وفي الواقع، فإن ما يجعلنا نتعرف في إشارة كونيل على التحية النازية ليس فقط شكل التعبير، بل أيضا المحتوى الذي تحيل عليه. لقد حاول

ديودوني وبعض مساندیه الإشارة إلى الغموض الجنسي الذي يلفّ إشارة الذراع (بجدر بنا أن نرى محاكاة الإشارة إلى موضع في الدُّبر ودلالة الاستدبار وممارسة الجنس مما يجعل منها نسبيا إشارة جنسية إلى آثار النظام في حياة المواطنين): ليس هناك أقل من كون خطاب ديودوني يحمل علامات ضد السامية، ويساعد على انتقاء السمات التشكيلية التي تكوّن كونيل؛ ونظرا لسياق خطاب ديودوني المعادي للسامية، فإن إشارة كونيل سينتهي بها المآل لتبدو وكأنها تحية للنازية، وتساهم، بدورها، في ترويج وتأكيد بعض المحتويات المعادية للسامية في تصريحات ديودوني وهكذا دواليك في حلقة مفرغة.

يجب على التحليل السميائي أن يربط بين الدراسة البنيوية للأشكال التعبيرية والتحليل الدلالي للمحتويات طالما أن كونيل تعد إشارة طقوسية دالة على الانتماء اللامفكر فيه لجماعة معادية للسامية، فعلى ماذا تدل هذه الإشارة عندما تظهر في سمياء الكون الفرنسي المعاصر؟ للإجابة عن هذا السؤال يلزمنا التمييز بين عدة مستويات تحليلية: فمن جهة هناك مستوى القصدية التواصلية لأولئك الذين يعيدون إنتاج هذه الحركة. ومن جهة أخرى هناك مستوى القصدية التأويلية لأولئك الذين يشاهدونها في الشارع أو في وسائل الإعلام. إن سيكولوجيا وسوسيولوجيا التواصل مؤهلين بكيفية أفضل من السميائيات للتحري والبحث- على التوالي- في هذين المستويين. لكن هناك مستوى ثالث أطلق عليه أمبرتو إيكو «قصدية النص» ويعني بها البنية الدالة للإشارة ومحتواها الثقافي المستقلّ عن المقاصد التواصلية والاستقبالية (تلك الدالة على التلقي).

فما هو إذن «شكل محتوى» إشارة كونيل، أي الطريقة التي تُظهر بها هذه الإشارة نزعة ثقافية لسمياء الكون الفرنسي الحالي؟ إن بعض هذه العناصر التي تكوِّن «شكل المحتوى» قد أثيرت من قبلُ وهي: الانخراط في إيديولوجيا التكرار؛ إحداث سياسة مرتبطة بالحياة اليومية لجماعة استئصالية؛ إحالة تناصّية على النزعة الإشارية للأنظمة الشمولية التوليتارية المعادية للسامية؛ القدرة على الانتشار عن طريق العدوى أو الانتقال الخارق كما هو الحال بالنسبة لنسخ وتقليد إشارات الزعيم. لكن كيف يمكننا تأويل المعادلة التشكيلية للتحية النازية والغموض الجنسي الذي ولّد هذه المعادلة؟ إن هاتين السمتين المركزيتين في البناء الاجتماعي لإشارة كونيل وما تتضمنه، لا يعملان سوى على إعادة إنتاج ما ذهب إليه ديودوني في كل خطاباته. فمن جهة نشير إلى أن القلب المكاني

للتحية النازية قد أقحم بعدا محاكيا ساخرا شبه احتفالي في انتشار الإشارة. فما نراه في إشارة كونيل ليس فقط النزعة النازية، بل محاكاتها الساخرة. ومن جهة أخرى، إن الإحالة على الفعل الجنسي ستساهم في نشر سلسلة من الإيحاءات الآتية: أولا، إنها تحول تحية يبدو أنها وضعت أصلا لتحديد هوية وتشريف رفيق إلى تحية لم تكتف فقط بتحديد هوية الانتماء، بل ساهمت أيضا وفي الوقت نفسه، في صناعة عدو: إن إشارة كونيل هي في الواقع، الإشارة التي يتقاسمها كل أولئك الذين يشعرون باغتصابهم وانتهاك «**النظام**» لحرمتهم، وهو نظام يعطي إلى الإشارة في بعدها التناصي إيحاء إسرائيليا، إنهم يحاولون بدورهم مبادلة هذا الانتهاك. إن الطابع الذكوري المفرط والمعادي للمثلية الجنسية الذي توحي به إشارة كونيل، والذي يكاد يعني ضمنيا أن النكاح من الدّبر لا يمكن إلاّ أن يفضي إلى اغتصاب، هو الذي يساهم في تعميق التناظر الدلالي الفاشي للإشارة.

غير أن التقاطع بين التناظر الإشاري النازي و التناظر الجنسي- التقاطع الذي ولّد القلب المكاني للتحية الرومانية- ليس هو الأثر الوحيد الذي ترتّب عليه اقتراح تدليل جديد من قبل ديودوني. إن إشارة كونيل منظورا إليها في سياق أوسع، تعبّر عن مضمون يلزمنا الإحالة عليه داخل توجه ثقافي أعمّ، معبرة عن نفسها في الخليط الغامض للخطاب السياسي مع الخطاب السخري. فهناك دائما سخرية في الخطاب السياسي؛ وفي الوقت نفسه، نورد أن خطاب «مهني ومحترفي السخرية» الكوميديين كان دائما ممزوجا بإيحاءات سياسية. ومع ذلك، في السنوات الأخيرة، في فرنسا كما في إيطاليا أو في أي مكان آخر، فإن التقاطع بين هذين الخطابين قد أخذ صورة غير عادية ومثيرة للقلق. فمن جهة نورد أن الخطاب الساخر أصبح بمعنى من المعاني خطابا مهيمنا، ليس بالمعنى الذي يجعله يستولي ويمنحه سلطة، ولكن بالمعنى الذي يجعله يحول الخطاب السياسي للمعارضة إلى خطاب للسلطة. لقد كانت هذه الظاهرة أكثر وضوحا في إيطاليا، حيث أصبح الكوميديون الساخرون في فترة رئاسة بيرلسكوني هم زعماء المعارضة وقادة الرأي الحقيقيين في محاكمة معززة بالرقابة البيرلسكونية: كلّما هاجم الكوميديون الساخرون بيرلسكوني وأنصاره كلّما ازدادت الرقابة عليهم، غير أن هذا يحوّلهم إلى شهداء قضية، وإلى زعماء، في عيون فئة عريضة من الرأي العام الإيطالي. إن حصيلة هذه السيرورة

الثقافية، في نهاية فترة بيرلسكوني الرئاسية، هي إنشاء خطاب سياسي أداته البلاغية الجوهرية هي السخرية، أو بالأحرى، التهكّم الساخر والتعريض. وإذا كان هذا التوجه في السياق الإيطالي قد ساهم في صعود بيب غريو وحركته السياسية، فإنه في سمياء الكون الفرنسي، أو بالأحرى عند ديودوني، نجد، *مع مراعاة ما يقتضيه اختلاف السياق*، إحداث مؤسسة للتهكّم باعتبارها محورا أساسيا لبلاغة المعارضة السياسية.

إن هذا الخلط في الخطابات وباقي المواضيع الأخرى لا يمكن أن يكون دون عواقب. فحسب الأماكن الخطابية التي نتردد عليها أو التي نعبر فيها عن ذواتنا، هناك درجة متفاوتة من المسؤولية المسندة إلى أفكارنا وملاحظاتنا التي نسعى إلى ترويجها وتعميمها داخل المجتمع. فالسياسي الذي يتحدث داخل البرلمان عن دولته قد وضع نفسه في الوهلة الأولى داخل ساحة خطابية حيث كل ما لديه وكل ما سيقوله سيتم النظر إليه بوصفه تعبيرا عن قصديته التواصلية وبالتالي مصدرَ مسؤولية كاملة. إن وضع الكوميدي الساخر الذي يُدين الآراء السياسية على المسرح، في مشهد ما، يختلف تماما عن وضع السياسي. إن مسؤولية كلامه وأفكاره ستكون دائما محدودة بسياق الأداء أو الإنجاز وبالمكانة التي يحتلها في المخيال الجمعي. وفي مواجهة أيّ انتقاد يوجّه إليه يستطيع الكوميدي الساخر الادعاء دائما بأنه كان يمزح أو أنه لم يكن جادا، وأن الأمر يتعلق بعرض ساخر ليس إلاّ وبأن حرية تعبير الفنانين لا يمكنها بأي حال من الأحوال أن تكون محدودة.

إن الثقافات الغربية توافق على إعطاء قدر أكبر من الحرية للفنانين ويعد هذا فتحا مبينا لتطورها الديمقراطي. لكن ماذا يحدث، إذا تمت مساندة كوميدي ساخر من قبل الآلاف الذين يرتادون الأنترنيت، بل الملايين من المعجبين؟ وماذا يحدث إذا لم يكن تعريضه وتهكّمه موجّها ضد زعيم سياسي أو ضد حكومة، ولكن ضد جماعة عرقية أو ضد ديانة ما؟ ماذا لو كان هذا التهكّم سببا في جعل الملايين من الأتباع يحرجون جماعة عرقية ويجعلونها أضحوكة أو حتى النظر إليها بوصفها عدوا ينبغي طرده بعنف من المجتمع؟ إن المدافعين عن حرية السخرية مهما كلّفهم الأمر ينسون بأن هناك اختلافا جوهريا بين الكوميدي الساخر الذي يحاول وحده إحراج السلطة باجتذاب الناس إليه وتعاطفهم معه بسبب الشجاعة والمراوغة اللتين يظهرهما أثناء تحدّيه للرقابة، والكوميدي

الساخر، الذي أصبح زعيما للرأي، أو زعيما سياسيا لجماعة كبيرة تشجعه، عبر تهكّمه، على خلق واضطهاد كبش فداء. إن هذا بالضبط هو التوجه الثقافي الذي نلمسه والذي يعرب عن نفسه في إشارة كونيل: إن اعتماد التهكم كتقنية بلاغية غامضة، إنما هو للانفلات من قيود وإرغامات الخطاب السياسي وذلك عبر إعادة اقتراح خطاب سياسي آخر تجسّده تقنية الضحك كآلية ديماغوجية معدية ودون تفكير؛ إن السخرية من العدو بدون قيود، عدو لا يتم الكشف عن هويته بالاسم ولا بالمسؤوليات المنوطة به ولكن يلمّح إليه دائما بالصفات العرقية والشكوك والشبهات التي تحيط به؛ وإننا لا نجد أدنى صعوبة في العثور داخل كونيل ديودوني، عن المزج السامّ بين التهكّم والسياسة الذي تروج لملصقات معادية للسامية خلال الفترة النازية والفاشية والتي تمجّد الضحك العنيف لملايين من الألمان والإيطاليين.

هل يمكننا أن نقول إن إشارة كونيل هي إشارة أصولية؟ لم يخف ديودوني يوما ما تعاطفاته مع الإسلام الأصولي وممثليه الفرنسيين الذين يتقاسم معهم نفس الكراهية المعادية للسامية، حيث يمكننا أن نشاهده على موقع يوتوب في مشاركته في برنامج إيراني يُشيد بحكومة مُنكِر المحرقة محمود أحمدي نجاد والتي قبلت أيضا بتمويل هذا البرنامج. بالإضافة إلى ذلك، فإن عدو ديودوني وأتباعه يتميز بأوصاف عرقية ودينية- «وهي الأوصاف التي تعبر عنها كونيل وبلاغتها بما يتناسب مع عدو الشعب الفرنسي»- التي نجدها في معاداة السامية للإسلام الأصولي. غير أن هذه العناصر لا تشكل الأسباب الجوهرية التي تجعلنا نصنف تهكم ديودوني وإشارته ضمن مظاهر الأصوليات المعاصرة. إن السبب الرئيسي لهذا التصنيف هو شيء آخر مختلف. ففي الوقت الذي يستهدف فيه خطاب السخرية وعلى نحو جوهري تقويض العادات التأويلية وخاصة تلك العادات الناجمة عن السلطة ومراقبتها الصارمة والعدوانية على المجتمع، نجد خطاب التهكم وخاصة تهكم ديودوني يجعل أحد أهدافه الأساسية تأكيد إيديولوجيا التكرار التي تبدو من خلالها إشارة كونيل، وموجات الاتهامات التي ترمز لها، مجسدة في جماعة بأكملها باعتبارها حقيقة مكررة لكنها غير قابلة للمعالجة والتأمل وباعتبارها مؤسِّسة لعقيدة ديماغوجية هي في مواجهة عنيفة مع عدو يحمل هوية عرقية دينية، أي اليهود، إن هذا العدو يجد تضامنا في التطرف الإسلامي فضلا عن تضامن أصولية النازية الجديدة معه.

سميائيات البلاغة الجهادية

حسب تقديرات الحكومة الفرنسية، وتقديرات الصحفيين الذين أجروا التحقيق في هذا الموضوع، فقد أكدوا أن ما بين ست مائة وسبع مائة من المواطنين الفرنسيين الشباب هم الآن متواجدون في سوريا، يحاربون ضد نظام بشار الأسد ضمن مجموعتين إسلاميتين أصوليتين ومقاتلتين، وهما جبهة النصرة، فرع من فروع تنظيم القاعدة في سوريا، والدولة الإسلامية في العراق والشام. وتختلف هاتين المجموعتين عن بعضهما بتاريخهما وطريقتهما في القتال ومشروعهما السياسي، بل أيضا طريقة كل واحدة منهما في تأويل الإسلام. وعلى كل حال، فداخل هاتين المجموعتين لا يزال هناك في الوقت الحاضر «لواء فرنسي» مكوَّن من شباب مقاتلين قادمين من فرنسا وبلجيكا. وقد احتُلّت العديد من مباني حلب من قبل هؤلاء الجهاديين الفرنكفونيين، حيث يتم السّهر على تنظيم أسفارهم وإقامتهم في سوريا، مصحوبين بسلسلة من الإمدادات اللوجيستية التي تساعدهم في التنقل من أوربا إلى سوريا عبر تركيا وتساعدهم في العثور على سكن والتدريب عسكريا للانضمام إلى ميادين القتال. إن المجتمع الفرنسي، ومؤسساته المعنية، يبدي قلقا، ليس فقط لأن شبابه قُتل في سوريا في مواجهات مسلحة ولكن أيضا لأن داخل هذا « اللواء »، ولا سيما من الفرنسيين من يدمج عناصر من الدولة الإسلامية في العراق والشام، وهي عناصر تخطّط وتتحدث عن تنظيم هجمات على الأراضي الفرنسية. ويتزايد هذا التهديد بالتوازي مع تنظيم الخلايا الجهادية في فرنسا، ومع الدعم الذي تتلقاه تأييدا للوجود الإسلامي الأصولي في إفريقيا، وتحديدا في دولة مالي.

إن ما يمكن للسميائيات أن تقدمه لدراسة هذه الظاهرة لا يكمن في تحليل الأسباب الاجتماعية التي كانت وراء دفع المئات من الشباب الفرنسي للانضمام إلى معركة جهادية. إن السميائيات، بالمقابل يجب، أن تقترح قراءة للآليات الإقناعية التي كانت أولا وراء استقطاب وجذب هؤلاء الشباب الفرنسي إلى كون تأثير الأصولية الإسلامية، وكيف اقتنعوا أيضا بالتخلي عن كل شيء للمخاطرة بحياتهم باسم الجهاد.

لقد أظهرت تحقيقات الصحفيين مع الفرنسيين الذين يقاتلون الآن في حلب بأنهم يخرجون تماما عن الصورة النمطية التي كوّنها الرأي العام عن الأصولية الإسلامية وكما تمّ استيعابها خلال العقد الأول من القرن الحادي والعشرين. فالعديد من المقاتلين ينتمون إلى الضواحي الفرنسية، لكن هناك الكثير منهم قادم من الريف. إن أغلبيتهم لا يتكلمون ولا يقرؤون العربية، يعلمون فقط بِضع كلمات. وإن اعتناقهم لهذه الأصولية، فضلا عن انخراطهم في القضية الجهادية، لم يتم في أماكن طبيعية مثل المساجد أو مراكز الصلاة والعبادة، بل في البيت أمام جهاز الحاسوب. إن ما يُدهش أكثر وما يجعل من مبادرة الحكومة الفرنسية مبادرة قديمة عفا عنها الزمن هو وضعها سلسلة من منتديات الإنترنيت الجهادية تحت المراقبة، ممّا جعل الأصولية الإسلامية في فرنسا وغيرها من الدول الغربية تتخلى بالتدريج عن مواقع الإنترنيت لتنمو وتطوِّر نفسها داخل شبكات التواصل الاجتماعي. إن الدعاية الجهادية التي قام بها الشباب لأجل الشباب (بمعدل عمر يفوق خمسة وعشرون سنة) تتّبع موضة تقنيات التواصل الحديثة وتُكيفها وتخضعها لأهدافها في الإقناع الديني والتحريض على القتال. فالفايس بوك ويوتوب، ثم تويتر، والآن نجد إينستغرام والواتس آب وحتى بعض ألعاب الفيديو، أصبحت منابر عدة للإقناع الديني والهوياتي، مع امتلاكها لكفاءة عالية قادرة على استقطاب وتكوين العقول الشابة التي لا مُعادل لها في عالم اتصالات «الكبار» مثل(الصحافة والإذاعة ومواقع الإنترنيت التقليدية). إن مزايا شبكات التواصل الاجتماعي في نشر الدعاية الجهادية متنوعة، لكن هناك مزيتين أساسيتين سنوضحهما بشكل عميق: المزية الأولى، تشير إلى أن التدفق الدائم للاتصال والذي يتطور باستمرار في هذه الأشكال قادر على التأثير بسرعة البرق في الأحداث السياسية والعسكرية الراهنة وحتى على التفاعل وسط الحروب الأكثر شراسة؛ أما المزية الثانية، فتُظهر أن أولئك الذين يستوعبون مضامين الدعاية الجهادية عبر انغماسهم في شبكات التواصل الاجتماعي يشعرون في الحين أنهم محاطون بجماعة تدغدغ وتعزف في كل ثانية على إيقاع أفكار ومشاعر يتقاسمونها باستمرار. بالإضافة إلى ذلك، هناك ميزة لا يمكن التغاضي عنها، وهي أن المضامين التي تروِّجها شبكات التواصل الاجتماعي تتنصّل تقريبا من كل مراقبة مركزية.

إن التدفق الفعال والمتناثر لمضامين شبكات التواصل الاجتماعي، فضلا عن تحولها الجذري، يجعل من الصعب إن لم يكن مستحيلا، القيام بدراسة ثقافية وإثنوغرافية للدلالة كما تتداولها هذه القنوات الرقمية. ومع ذلك، فللسميائيات ميزة، مقارنة مع غيرها من المباحث المعرفية، تؤهلها لدراسات هذه الأشكال التواصلية بوصفها نصوصا، أ ي في نوعية مشاريعها الدلالية الذي يُتوقع أن تكون لها تأثيرات إقناعية على«القارئ النموذجي» الذي قام ببنائها. وسنقترح مثالا تحليليا قادنا إليه البحث في الجزء المحوري من تطوره، وقد خصصناه للبلاغة الجهادية في مواقع الإنترنيت وفي شبكات التواصل الاجتماعي للغة الفرنسية.

ويعدّ موقع WWW.MON-ISLAM.COM أحد أبرز المواقع الإسلامية الأصولية الجهادية في فرنسا. فعلى صفحته الافتتاحية يعلن التحاق «عشرة آلاف أخ وأخت في الإسلام» قاموا بإنشاء مائة وثمانين مجموعة ووضعوا أزيد من عشرين ألف شريط فيديو. بينما تكشف لغة الموقع فضلا عن العديد من المساهمات التي يحتضنها، عن ضعف تعليمي ولكن بإثارة بصرية ملحوظة: ففي كل يوم تنضاف إليه أشرطة فيديو جديدة إلى محتوياته المتنوعة. ويعيد الموقع إعادة إدراج محتوياته وأنشطته على شبكات التواصل الاجتماعي الرئيسية مثل الفايس بوك الذي يضم الآلاف من المحبين والمؤيدين وتويتير ثم غوغل+ ويشتمل موقع WWW.MON-ISLAM.COM مثله مثل بقية المواقع على عدة خانات أو نوافذ: منها مثلا نافذة « Mon Islam » (إسلامي) وتتضمن عرضا تقديميا للموقع؛ ونافذة « Le réseau » (الشبكة) التي توفر لزوار الموقع خدمة شبكة التواصل الاجتماعي الداخلي؛ ثم نافذتي «vidéo» و «Groupes» (الفيديو) و (المجموعات) اللتين تقدمان أنشطة متخصصة للزائر أو القارئ حيث تشتمل هذه النافذة على مكتبة إسلامية بصيغة PDF؛ ونافذة « Evénements» (أحداث) التي تعلن عن اللقاءات أو ما يتعلق بأي أنشطة أخرى تقام في فرنسا وفي الدول الفرنكفونية؛ ونافذة « Articles » (مقالات) التي تتضمن دراسات وتعليقات مبنية ومصاغة بطريقة جيدة، على شكل أبحاث قصيرة، حول مواضيع تتعلق بالإسلام في فرنسا؛ ونافذة « Lexique» (معجم) التي تقدم شرحا للمصطلحات العربية الأكثر شيوعا وتداولا في الإسلام وخاصة تلك المتداولة في الموقع،

ونافذتي«photos» و «Tchat» (صور) و(دردشة)؛ إن نافذة الدردشة مقسمة حسب النوع«Q/R» (سؤال / جواب) حيث *الخبراء والمُفتون* يردون على أسئلة القراء والزوار؛ وأخيرا نافذة «My mail» (بريدي) وهي خدمة البريد الإليكتروني التي يوفرها الموقع للمستعملين. إن هذا الموقع وظيفي، لكن فقد تم إنشاؤه إما من قبل أناس غير محترفين وغير متخصصين أو من قبل محترفين لكن بكفاءات متواضعة وبسيطة جدا. فهناك فوضى تلفّ هيكلة وتنظيم محتوياته، إضافة إلى الصورة المشوهة التي كتبت بها اللغة الفرنسية في كل مكان من الموقع تقريبا. وسنقترح الآن تحليلا لبعض محتويات الموقع، الحديثة نسبيا، والتي أثارت بشكل خاص، انتباهنا كباحثين في حقل السميائيات. ففي نافذة «Q/R» (سؤال / جواب) تضع إحدى زائرات الموقع السؤال التالي:

"As salam waleykum, La lapidation existe en Islam, je me pose des questions sur le «bien-fondé » de cette pratique, (sans remettre en question son caractère légifèré [sic]) ce sujet me met mal à l'aise et j'aimerai [sic] comprendre. baraka Allahufikum."

" السلام عليكم، الرّجم يوجد في الإسلام، أنا أسأل نفسي أسئلة حول «مزايا» هذه الممارسة، (دون التشكيك في شرعيتها) إن هذا الموضوع لا يجعلني أشعر بالراحة وأحب أن أفهم. باراك الله فيكم."

و يجيب «المفتي» عن هذا السؤال الذي صيغ باللغة الفرنسية بطريقة غير صحيحة، وهي الصياغة التي تهيمن على كل الموقع، بقوله:

"Salam alaykum tout d abbord oukhty je ne vais pas te parler dans quel cas et qui doit ont lapidé mais je vais plutot t expliqué « le bien fondé » de cette pratique Inchallah. «C tres simple Si tu te pose des questions sur le bien fondé de la lapidation sache oukhty qu Allah azzawajal a dit «Qui y a t il de meilleur qu Allah en matiere de jugement pour des gens qui ont la foi ferme» Donc sache que chaque chose qu Allah a legifere est un bien pour l homme et tt musulman(e) doit en etre convaicu et certe

Allah nous a dit «Il se peut que vous detestiez une chose alors qu elle vous soit un bien et il se peut que vous aimiez une chose alors qu elle vous est nefaste. C est Allah qui c alors que vous ne savez pas…"

السلام عليكم قبل كل شيء أختي لا أريد أن أحدثك عن هذه الحالة و لا عن من يجب في حقهم الرجم، ولكنني سأشرح لك بدلا من ذلك «مزايا» هذه الممارسة إن شاء الله. إن المسألة بسيطة جدا إن أردت أختي وضع أسئلة حول سلامة ومزايا الرجم اعلمي أن الله عز وجل قال: « ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون » إذن اعلمي بأن أي شيء شرعه الله هو في صالح الفرد وكل مسلم ومسلمة يجب عليهما الإيمان بذلك لقد قال لنا الله «وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ » [1].

هناك عدة عناصر مثيرة للاهتمام في هذا الرّد المليء بالأخطاء الإملائية. إن غرض المفتي هو الانطلاق من عبارة بليغة ومختصرة، بعيدا عن اللعب بالألفاظ، والتي بَدتْ في عبارة« بسيطة جدا » حيث حاول أن يبين على الفور وبشكل يقيني بأن المسألة الأخلاقية التي كانت مصدر قلق وإزعاج زائرة الموقع هذه (توفيقها بين الإيمان الشخصي، والتشريع الأصولي لممارسة همجية) هي في واقع الأمر مسألة حلّها بسيط جدا ولا ترقى لكي نجعل منها فعلا مشكلة. وتبعا لذلك لم يقدّم المفتي أي دليل لإثبات صحة دعواه لكنه، اكتفى، بالمقابل بشرح مزايا الخاصية الجوهرية لهذه الممارسة. وهكذا فإن تبرير أو إضفاء الشرعية في البلاغة الجهادية على نسق أو معيار ما، حتى وإن كان غير مرغوب فيه، لا يستمدها من تأثيراته الاجتماعية ولا من المكانة التي يجدها داخل النسق التيولوجي، بل يستمدها، بالأحرى، من «الأصول» المتعالية التي يستند إليها، والتي لا تحتاج في وضوحها إلى أدلة للبرهنة عليها بل إلى اقتباسات تظهرها وتعززها. إجمالا، فإن إجابة «المفتي»تدور حول اقتباس عام والممثل في « ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون ». إن هذه الجملة

1- لقد قمنا بتمثل الترجمة حرفيا لما ورد في النص القرآني أما النص الأصلي فهو يخالف هذا تماما وللتدليل على هذا فقد أجاب المفتي باللغة الفرنسية كتابة في قوله: "وَاللَّهُ يَعْلَمُ" على هذا النحو:Allah qui c .

المرجأة، دون فواصل ودون حركات ودون أي إشارة وأي مصدر يعرب عنها جيدا، هي الأساس وحده دون غيره الذي يدعم بلاغة الإجابة ويضفي عليها طابع حكمة السلف التاريخية وطابع القداسة. وهكذا فإن حتى هذا الاقتباس نفسه، الخاطئ والذي لم يُشَر إلى مصدره يصلح لكل شيء؛ حيث يمكن الإتيان به لتبرير كل شيء والإتيان به لرفض كل شيء، لذلك فهو اقتباس عام. الشيء نفسه يمكن أن يقال عن الاقتباس التالي الذي حاول استقطاب الزائرة مستعملة الموقع انطلاقا من مبدأ الاستسلام والخضوع ليس فقط المعنوي بل أيضا الأخلاقي والإيتيقي إلى الإرادة الخارقة والعجيبة للتعالي. ويجب أن نسجل من وجهة نظر بنية التلفظ بأن الإجابة، انطلاقا من استعمالها المباشر والفوري للضمير«أنتِ» tu وعن طريق اعتمادها أسلوب سريع وخاطف من نمط الأساليب التي نجدها في كتابة الرسائل القصيرة «SMS» وحتى بالنسبة لأخطائها الإملائية، تقيم صلة مباشرة، وعفوية مع مستعملة الموقع الوهمية والتي يتوجه إليها المفتي بطريقة تثبت ضلوعه في الشريعة والتي يقدمها لمحاورته بكيفية مألوفة وأليفة.

ويتكرر تشييد بلاغة العفوية الأخوية هذه، في كل نوافذ الموقع وفي كل الخطاب الجهادي: فعندما نعتنق الإسلام في نسخته الجهادية والقتالية، فإننا نلج كونا خطابيا، لا يمكننا الشعور فيه أبدا بالوحدة، بل نجد أنفسنا دائما محاطين بواسطة «إخوان» و«أخوات» جدد، حيث آصرة الدّين تحلّ محلّ آصرة القرابة والعائلة. ويقوم المفتي، في ما تبقى من الإجابة، بسرد «مزايا الرجم وفوائده» المتبدية في :

- *تطهير المذنب من أخطائه لأن الرسول عليه الصلاة والسلام قال: "إن الله إذا أحب عبدا ابتلاه".*
- *أن نظهر للجاحدين أن دين الله ليس لعبة حتى لا تتكرر وتتفاقم الأزمات والاضطرابات. لقد قال الله عز وجل في الرجم:« لَيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ».*

"- purifier l auteur de ses fautes car comme le prophete sallat wa salam nous a dit quand Allah aime un homme il le chatie dans ce bas monde.

- Montrer a ceux qui y assistent que la religion d Allah n est pas un jeux ainsi les troubles ne se reproduiront pas Allah azzawajal nous dit «Et q un groupe de croyant y assiste» (a la lapidation)"

إن ما يثير انتباه القارئ «العلماني» في هذه الردود هو نزع سلاح البساطة عنها، فعبرها يمكن معالجة العديد من القضايا الحساسة، ويتم بواسطتها كذلك تأمين وإبعاد كل تدخل للعالم الخارجي في الإسلام الأصولي. إنه سحر غرابة التبسيط والاختزال. غير أن الباحث السميائي لا يمكنه أن يقتصر على تحليل المكون اللفظي للبلاغة الأصولية. ينبغي أن ينتبه أيضا إلى سائر المواد التعبيرية التي تشكلها، خاصة وأنها تتألف من الصور وأشرطة الفيديو التي وضعها أناس حديثي العهد بالانضمام إلى الأصولية. حيث يتم خلال كل ساعتين أو ثلاث ساعات، «تحميل» شريط فيديو جديد في نافذة «شريط فيديو» ضمن موقع mon-islam.com. بينما تخصص خانات الموقع الأخرى لمواضيع متنوعة جدا تتكفل بشكل خاص بمعالجة مختلف جوانب الحياة الشخصية للمؤمنين، وإن أشرطة الفيديو المخزنة والمودعة في الموقع، تشير في الغالب، إلى الالتزام السياسي والعسكري للأصوليين الفرنسيين وتحظّهم على واجبهم الجهادي. وفي الفترة التي تم فيها تحليل الموقع، نورد أن معظم أشرطة الفيديو هذه، تطرّقت إلى مسألة الوجود الأصولي الإسلامي الفرنسي في سوريا ولا سيما في مدينة حلب. ويلخص شريط فيديو«الشام» *(الاسم الإسلامي لسوريا)* الذي تم تحميله من موقع mon-islam.com يوم 23 مارس 2014 بشكل جيد خصائص خطاب الوسائط المتعددة وبلاغتها الإقناعية. ويحتوي هذا الشريط، الذي تبلغ مدة عرضه حوالي خمسة عشر دقيقة، على عدد من المشاهد الأساسية. ومع ذلك فهذه المشاهد ليست نتاج مونطاج احترافي اعتمد المؤلّف نفسه في إنجازها على أدوات ومواد عدة، بل هي نتاج خليط فظ بنيته متداولة وواضحة جدا في هذا النوع من النصوص السمعية البصرية: وتحيل مشاهد العرض الأولي على أشرطة فيديو موجودة سلفا أنجزت هي الأخرى بنفس الكيفية التي أنجزت بها الأولى، وهكذا دواليك في هوة حيث ما يهم ليس هو نوعية التضمين بل التضمين ذاته. إن

أشرطة الفيديو تعيد بث لقطات أشرطة فيديو أخرى والتي تعود بدورها إلى أشرطة أخرى مما يجعل هذا التعبير البصري نوعا من أنواع التشكيل الجمعي للفكر ومخيال الجهاد، ونوع من العدوى حيث يصير كل عضو ناقلا وناطقا - بصريا باسم الجماعة كلها، وذلك باستخدامه لبعض اللقطات التي عثر عليها في شبكة الأنترنيت لتعزيز وتقوية رسالته الخاصة للتأثير والوصول إلى الجمهور في مجال نفوذه. ففي شريط فيديو الشام الذي نعرضه هنا للتحليل، يحتوي المشهد الأول على صور مراهقين، من المحتمل أن تكون جنسياتهم غربية (فرنسية وبلجيكية) وتظهرهم هذه الصور بتعابير دالة تارة على الفخر وتارة أخرى على الفرح بلِحيهم الطويلة وبارتدائهم للباس المليشيات المقاتلة، أغلبهم مجهّزين ببنادق ومتاريس تحت أذرعهم أو مثبتة في ساحة القتال المغبرّة. تتحرك وجوههم على الشاشة ببطء يتلاشى وينصهر فيها العبور من صورة لأخرى - مؤكدين على روح الجماعة التي تربطهم – مرفوقة بموسيقى تصويرية تبث نغما قدسيا ينادي للصلاة. وبعد ذلك، يُظهر المشهد الثاني من الشريط الشخص الذي من المحتمل أن يكون المؤلف الحقيقي للفيديو، وهو شاب مراهق فرنسي، من أصل عربي، يرتدي لباس مقاتلي جبهة النصرة ومحاط برموزه المنتمين لتنظيم القاعدة. ويخاطب الشاب المراهق محاوريه بلغة فرنسية معقدة، وبلهجة قوية، وغالبا ما يقحم في خطابه عبارات دينية بالعربية، ساعيا إلى تشييد وهمٍ تواصلي عبر تكراره لكلمة «إخواني» بقلق وهوس شديد. إن البنية التلفظية للشريط (جسد المراهق وخطابه والكيفية التي صُوّر بها) تجعل بطله حاضرا في الآن والهنا (في الوقت الحاضر في سوريا)، كما أن المشاهدين مدعوين بل متوسِّلين للانضمام إليه لأجل لقاء «الإخوة الأفاضل والأحبة في الله». ويتم التركيز باستمرار على الجماعة السعيدة والمبتهجة التي تنتظر الشباب الذين هم في سن المراهقة كما أظهرهم الشريط، والذين يملكون الشجاعة للتحرّك بعيدا عن حياتهم الحالية وعائلاتهم في فرنسا وبلجيكا للوصول إلى «الشام».

ويُظهر المشهد الموالي جماعة من المقاتلين، يتأبطون متاريس، مُحاطين بشاحنات صغيرة. ومنتصبين أمام الكاميرا، لا تزال وجوههم في الظلام لم يُكشف عنها بعد. ليسوا شبابا ولا غربيين. زعيمهم رجل راشد انطلاقا من تخميننا لصوته، يتحدث باللغة العربية للشباب المشاهدين للشريط. وقد تُرجم خطابه إلى الإنجليزية والفرنسية بمستوى عالٍ من

الوضوح. إنها دعوة جديدة، تُتقِد لتلهب حماس الشباب شيئا فشيئا للانضمام إلى القتال؛ ورغم ذلك، فإن الحجج مختلفة: إن الفرح لا يتبدى في الانضمام إلى جماعة « الإخوان » السعيدة ولكن في الحاجة إلى حماية «الأخوات» المسلمات في سوريا من الاغتصاب. وبالإضافة إلى المضمون العدائي والشوفيني لهذا المشهد، سيكون من المفيد جدا التأكيد على الكيفية التي يتم بها تصميم مختلف الآليات والمواد للتحريض على الجهاد وإعلانه في سياقات متعددة ولجماهير مختلفة، حيث يتم جمعها بحرية بواسطة الدعاية التي يقوم بها الشباب الفرنسي لترويج رسالة محلية مفادها (دعوة شباب فرنسا وبلجيكا المسلمين إلى الجهاد)، وهذا يعطيها قوة إقناعية ويربطها بما هو كوني، حيث تمتزج الأصوات العربية بترجمات اللغة الإنجليزية والفرنسية، للتعبير عن مهمة التحرر العالمي.

ويشكل المشهد الموالي وهو الأطول، جوهر العملية الإقناعية في الشريط. إذ أن شابا مراهقا باسم عربي مستعار يشير إلى الأصل البلجيكي، يتجه بطريقة مائلة وغير مباشرة صوب الكاميرا ويجلس في خندق تحت أكياس الرمل جلسة القرفصاء. ما يدل على بوادر وعلامات المعركة في كل مكان: علامات بصرية تتبدى في (لباس الملشيات ومتاريس وأعلام الدولة الإسلامية في سوريا التي ترفرف في كل مكان مكتوبة بخط أبيض على خلفية سوداء)، غير أن هناك علامات سمعية تتبدى على نحو خاص في: نداء المراهق، الممزوج بأصوات البندقية، القريبة سواء من (الرفاق) والبعيدة عن (الأعداء). وبصوت خافت، فيما يشبه الهمس، يكرّر هذا المراهق الشاب الدعوة إلى الجهاد. لكن هذه المرة، تكون حجة الاستشهاد هي الأكثر استعمالا: حيث يتم استدعاء المجاهدين الفرنسيين الشباب باعتبارهم مجموعة صغيرة ضعيفة التسلح لكنها تملك شجاعة الشهداء، لتشكيل جبهة ضد جيش العدو الذي يُنظر إليه لا باعتباره جيشا محليا، بل باعتباره اتحادا لكل القوى العالمية التي تتآمر ضد الإسلام الحق: من البوذيين في آسيا إلى الشيعة مرورا « بالكفرة» والأوغاد الذين يعيشون في أوربا وأمريكا. إن حجة الحاجَة إلى حماية النساء والأطفال المسلمين من عدوان «الكفرة» واردة لكنها لا تشكل المحور البلاغي لهذا المشهد الذي يلعب أكثر على إذلال شباب المسلمين في أوربا وإهانتهم وعلى الفرصة التي توجد أمامهم للتخلص من الجمارك والانضمام إلى المعركة الجهادية، المنظور إليها بوصفها معركة الأضعف ضد الأقوى، شهداء يرشدهم الله لقتال أعداء الإسلام. وفي نهاية

المشهد يعود الشاب المراهق الفرنسي الذي صادفناه أول الأمر ليجدد دعوته للجهاد، متبوعا بمشهد نهائي جديد يظهر كل الشباب المحاربين في صور أصلية وهم على «أُهبة» لطلق رصاصات وأعيرة نارية يقودون شاحناتهم وعلى متنها جماعات مسلحة. يرددون بصوت عال والابتسامة على شفاههم جميعا «هلمّوا إلى الشام!» ، يرددونها بلهجة الفرح والبهجة وبنغم ذاك الذي يدعو إلى الانضمام لوجهة سياحية أو قرية لقضاء العطلة.

يتميز الشريط إذن، ببنية متسقة ومتماثلة بصورة جيدة، تبتدئ وتنتهي باستدعاء البطولة السعيدة للشباب المجاهدين الفرنكفونيين في سوريا. ووسط هذه البنية نقوم ببسط كل حجج البلاغة الأصولية المقاتلة، حيث لا يبدو فيها اسم الله رغم ذلك، وفضلا عن كل التعابير البسيطة المستوحاة من القاموس اللاهوتي، سوى تحصيل حاصل يكون القصد من ورائه دوافع أخرى للجهاد: إذ أن الانضمام إلى جماعة متذبذبة تعيش على وقع الاهتزاز يتم تصويرها على أنها عائلة من الإخوان والأخوات لكن دون آباء وأمهات معناه؛ حماية مصير الضعفاء ولا سيما النساء المسلمات اللواتي هنّ في خطر؛ ونشر رسالة الإسلام السّني ورفع الذّل والمهانة عنه في العالم الغربي؛ وتحديد هويته إزاء الفكرة والإمكانية الملموسة للشهادة؛ والدخول في مغامرة بكل ما يؤثثها من عناصر: حيث الهجرة والمخاطرة وصحبة مراهقين آخرين ولا سيما المحاربين منهم، واحتمال مهمة وجودية.

إن الجاذبية التي يمارسها هذا النوع من الأشرطة على الشباب الفرنسي والفرنكفوني لا يمكن تفسيرها بطريقة أحادية. فمن جهة نورد أن الدعوة للانضمام إلى مصير تحفّه المغامرة وتملؤه المخاطر والتضحية بالذات، قد تبدو للوهلة الأولى، كأنها اقتراح لمسار وجودي للأكثر بعدا عن الرتابة والتكرار. ومن جهة أخرى نستطيع أن نبين على وجه التحديد بأن هذه الأشرطة مُقْنِعة مادامت تمنحنا صوتا رمزيا يجنبنا الحاجة إلى بناء مستقبل مليء بالشكوك. إن اختيار مسلك للدراسات، ثم مسار مهني؛ معناه الفوز والتمتع بالحرية والاستقلال في محيط العلاقات الأسرية؛ ودعم مشروع الحياة على الرغم من غموض مجتمع يزداد تعقيدا يوما بعد يوم ويتهدده الخطر باستمرار: ويمثل الخطاب الأصولي الجهادي، مقارنة مع هذا المشهد الوجودي، اختزالا جذابا ومغريا، حيث طريق

الشهادة قد عبّدت سلفا، والهوية الفردية يحددها مصير مشترك الذي يستعير من خلاله خطاب تحصيل الحاصل للتعالي ملامح دالة على الثبات والجاهزية.

استنتاجات

يمكننا انطلاقا من الفصول السابقة لهذا البحث استخلاص العديد من الاستنتاجات.

ففي المقام الأول، كما أبان التحليل المعجمي والدلالي لكلمة أصولية، فلا تزال هناك فجوة كبيرة بين الطريقة التي وُضعت وحددت بها في الخطاب الموسوعي و العالِم والعلمي وبين الطريقة التي صورها بها الخطاب الاجتماعي وبشكل أعم وسائل الإعلام والصحافة غير المتخصصة وشبكات التواصل الاجتماعي. ففي الفرنكفونية، وبينما تذكّر القواميس والموسوعات دائما بأن الأصل التاريخي للأصولية يعود إلى المسيحية، نجد هذه الكلمة في المخيال الشعبي مرادفا للإسلام. والنتيجة هي أنه من الصعب القبول بأنه :

1- قد يكون هناك إسلام غير أصولي؛
2- قد تكون هناك أصولية غير إسلامية؛
3- قد تكون هناك أصولية غير دينية. ويصعب، على الخصوص، قبول هذا الإمكانية الأخيرة حتى في الخطاب العالِم الذي يميل إلى اعتبار العلمانية ترياقا كونيا وصامدا ضد كل نزعة أصولية.

إن استمرار هذه الصورة النمطية في المعنى المشترك أمر مخيف ليس فقط لأنها لا تطابق حقيقة الوقائع الاجتماعية والدينية (كل طائفة دينية، دون استثناء، أنتجت ظواهر مماثلة للأصولية الإسلامية، رغم عدم امتلاكها لنفس الرؤية الجيوسياسية)، ولكن لأنها في الغالب تملأ حلقة مفرغة وتغذيها: إن معادلة الإسلام مع الأصولية يسبّبان التطرف والعزل الاجتماعي للشباب المسلم الفرنكفوني، الذي يتسبب بدوره، وكأنه نبوءة تحقق ذاتها، في خلق جماعات إسلامية أصولية.

ولتحطيم هذه الحلقة المفرغة لا بدّ من حقن سمياء الكون الفرنسي وكذا سمياء أكوان كل الدول الغربية بمعرفة أكثر دقة وتنوعا بالإسلام والأصولية، وحضورهما في

ديانات أخرى. وكما سنرى، يمكن لوسائل الإعلام الرقمية الجديدة وشبكات التواصل الاجتماعي أن تمارس تأثير عميقا في هذا الاتجاه.

لقد أبان الفصل الثاني من هذا البحث أن البيبليوغرافيا الحديثة التي نشرت حول الأصولية في الدول الغربية حاولت ملء بعض هذه الثغرات من خلال تقديمها، مثلا، لدراسات خاصة حول «الإسلامات» والأصوليات التي تميزها وكذا تفاعلها مع مختلف السياقات الاجتماعية والثقافية الأوربية. إن ما ينقص هذه الأدبيات البيبليوغرافية، مع بعض الاستثناءات، هو التركيز المفصل على بلاغة الأصوليات الدينية، وعلى استراتيجياتها الإقناعية والظواهر الثقافية التي تنتجها وخاصة ظاهرة اللغة الأصولية، وعلى الطريقة التي تظهر وتصور بها المسار الوجودي بالنسبة لأولئك الذي يجعلون منها مقترحا لشكل الحياة.

وتحقيقا لهذا الهدف، جعلنا من الفصل الثالث، الأكثر تنظيرا، فصلا لتفكير مجرد حول ابستمولوجيا السميائيات لكي نحدد بصورة متبادلة قطبين سوسيوثقافيين منفصلين عبر توتّر جدلي وهما: إيديولوجيا سميائيات البروز من جهة؛ وإيديولوجيا سميائيات التكرار من جهة أخرى. إن مزايا هذا الإطار النظري متعددة نجمل بعضها فيما يلي: ففي المقام الأول، يجعلنا هذا الإطار نفهم النواة الوجودية للأصولية وتحديدها بكيفية دقيقة منفصلة عن الخطاب الديني الخاص الذي تلْبَسه. وبعبارات أخرى، يسمح لنا التعريف السميائي المجرد للأصولية بالتعرّف على بنيتها العميقة، أي إيجاد طريقة للنظر وتشخيص المعنى الذي يوجد في كل العقائد الدينية وحتى الذي يوجد فيما وراءها. إن الأصولية هي رد فعل على الحداثة المتطرفة لأنها تعبير جوهري عن يوطوبيا الحتمية المطلقة وعن بشرية تحاول أن تتجنب عبء الاختيار، وعن عدم اليقين في الحرية. يتضمن هذا التعريف أيضا مزايا تحليلية وتطبيقية. إنه يسمح لنا بمعرفة الاقتضاء والشرط الأنثربولوجي للأصولية، الذي يعدّ بدوره شرطا ضروريا لفهم قوتها الإقناعية: فإذا كانت الأصوليات الدينية قادرة على استقطاب الناس وتحويلهم إلى مرتدّين بشكل متزايد، فلأنها تمنح للأفراد شكلا للحياة، لم تستطع معها المجتمعات الغربية القدرة على اقتراح ما يلبّي الحاجيات الأنثربولوجية العميقة للبشرية.

وانطلاقا من هذه الفرضية تمكنا في الفصل الأخير من هذا البحث من التركيز على ظاهرتين من الظواهر المنتشرة شكلت «عدوى سميائية» والأكثر إثارة للقلق في المجتمع الفرنسي الحالي؛ يتعلق الأمر بالانخراط اللاّواعي في الإيديولوجيا وخاصة في الممارسات الإيمائية المعادية للسامية من جهة؛ ووباء المراهقين الفرنكفونيين الذين هجروا منازلهم في فرنسا وبلجيكا للانضمام إلى الجهاد صحبة تنظيم القاعدة في سوريا من جهة أخرى. وفيما يتعلق بهاتين الظاهرتين حاولنا أن نبين، أن قوة إقناع الخطاب الأصولي تتبدى في قدرته على تقديم رؤية مبسطة واختزالية للحياة والمجتمع، وخاصة في اقتراحه مسار وجودي محدد سلفا، حيث الأفراد يتعرفون على أنفسهم لا من خلال حرية قراراتهم، بل من خلال الحاجة لعضويتهم وانضمامهم إلى هذه التنظيمات.

وقد ذكرنا على الخصوص بأن هناك عنصرين لعبا دورا محوريا للغاية في مكْننة الوجود يتعلق الأمر من جهة، بتعريف المجموعة في ارتباطها بعدو يلزم محوه وإبادته؛ ومن جهة أخرى، بتعريف الفرد في ارتباطه بفكرة الاستشهاد، وهو تعريف وجودي متطرف يتحيّن عبر تحويل الفرد وغسل دماغه والانفصال التام عن الأسرة الأصل والهجرة إلى «أرض الجهاد »، والانضمام إلى «أسرة» أصولية جديدة، ثم عبر القتال والبحث عن موت بطولي.

وسوف لن يكون من السهل الاستجابة بصورة فعالة لانتشار الأصولية الدينية وتداعياتها العنيفة. فإذا كان العديد من المراهقين في فرنسا كما في بلجيكا، يتحولون وتغسل أدمغتهم أمام شاشة حواسيبهم للمشاركة في القتال الجهادي، فلأن البلاغة الأصولية، على نحو ما أشرنا إليه للتو، تغريهم بالانضمام إلى شكل من أشكال الحياة التي عجزت مجتمعات الدول الغربية على اقتراحها لهم. وعلى المدى الطويل، فإن الطريقة الوحيدة لتقويض السلطة الإقناعية للأصوليات، لا يمكن أن تكون إلا عبر تفعيل سلسة من الإجراءات الاجتماعية والثقافية التي تهدف إلى تغيير المنظورات الوجودية للمراهقين في المجتمعات الغربية. إن امتلاك مهمة في الحياة، يبدو ضروريا لوقف هذا الإجراء: إن هذا هو ما عجزت الآن المجتمعات الغربية على توفيره لشبابها، مقترحة عليهم بالمقابل، وجودا غير مستقر يتألف من اختيارات صغرى ومهمّات تجارية صغرى وصراعات مع الحياة اليومية يبدو أنها لا تُفضي إلى نتيجة. إن الأصولية المعادية للسامية والجهادية تقترح

على المواطنين الشباب من فرنسا وبلجيكا مهمة سلبية للغاية وهي: إبادة اليهود، والقضاء على الكافرين. فهل المجتمعات الغربية ستكون قادرة على إنتاج خطاب إقناعي بنفس القدر من الفعالية، بتكليف المواطنين بمهمات إيجابية ترتبط بالالتزام والمشاركة الاجتماعية والإدماج والصداقة؟

وفي مواجهة هذا التحدي، من المستحيل تصور وصفات قادرة على التأثير بشكل حاسم على المدى الطويل. ولحسن الحظ فقد نجت الثقافات من مشاريع الأفراد والجماعات. ومع ذلك، وخلال فترة زمنية قصيرة، كان من الضروري على الإطلاق، استخدام موارد أكثر اتساقا لنزع الأصولية من أسلحتها الأكثر قوة التي ليست هي البندقية ولا المتاريس، بل الدعاية المعدية لمنتديات الأنترنيت وشبكات التواصل الاجتماعي. ومع ذلك، فإن أي عمل للرقابة ستكون له نتائج عكسية، بما في ذلك الرقابة التي حظرت العروض المسرحية أو مواقع الأنترنيت. وترمي هذه الإجراءات السلبية، في الواقع، إلى إنتاج آثار مضادة مع انتشار المحتويات المراقبة بواسطة قنوات مختلفة وحتى التي يصعب جدا التحكم فيها. ومع ذلك، فإن الرد عن الدعاية الأصولية يظهر من خلال العمل الدؤوب لاقتراح بديل، والبناء المتسق لحكاية سوسيوثقافية تختلف عن تلك التي تحدد وترسم للمواطنين، والمراهقين على الخصوص، مسارهم الوجودي عبر صيغ شاملة وسلمية وودية. وبالنظر إلى اليوطوبيا الأصولية لإنسانية تتخلى عن حريتها لتخضع لإرادة التعالي الدموية، يجب علينا الرد بشكل أساسي وخاصة عبر جهد تحليلي، لإظهار أن ما يقدم باعتباره خطابا للتكرار المقدس ليس، في الغالب، سوى بلاغة تخفي بُعدَ الاستغلال والهيمنة وبناء السلطة وتسلسلها الهرمي. ومع ذلك، فإن هذا الجهد التفكيكي سوف لن يكون كافيا، ما لم يكن مصاحبا بتقديم حكاية يوطوبية جديدة (الدفاع عن حقوق الإنسان؟ والبيئة؟ والسلام؟ ولاهوت التحرير؟) قادرة على ممارسة جاذبية لا تقاوم على شباب «مجتمعات البروز» تثير إحساسهم بالمهمات الوجودية.

معجم مصطلحي

A	
Abduction	افتراض
Abréviation	اختصار
Absolu	مطلق
Abstraction	تجريد
Abstrait	مجرد
Accidentel	عرضي
Accompli	تمام
Accord	مطابقة
Accumulation	تراكم
Actant	عامل
Action	فعل
Action violente	فعل عنيف
Actualisation	تحيين
Adaptation	تطويع – تأقلم –اقتباس
Addition	إضافة
Adeptes	أتباع ومريدون
Adhésion	انضام–انتساب –تماسك

Affinité	تناسب
Affirmation	إثبات – تأكيد
Agentivité	فاعلية
Agressivité	عدوانية
alliés	الحلفاء
Altérité	غيرية
Alternance	تناوب
Analogie	مماثلة
Ancrage	ترسيخ
Annihilation	تدمير – إبادة
Anticipation	افتراضات ذهنية – توقع
Appartenance	انتماء
Apparaitre	ظهور
Application	تطبيق
Appropriation	امتلاك
Apriorie	قبلي
Articulation	تمفصل- تقطيع
Assomption	افتراض
asystématique	غير متماثل
Axiologie	نظام القيم
Attitude	موقف

B	
Biosémiotique	سمياء حيوية
biosphère	كون حيوي
C	
Causale	سببي
Censure	رقابة
Cercle Vicieux	حلقة مفرغة
Charge	حمولة
Chaine signifiante	سلسلة دالة
Champ sémantique	حقل دلالي
Codification	تسنين
cognitive	معرفية
Cohérence	انسجام –اتفاق- تماسك
Collectif	جمعي
Combinatoires	تأليفات
Commensurabilité	قابلة للقياس- مناظِرة
Communauté	جماعة – طائفة
Compréhension	فهم
Conceptualisation	مفهمة
Confession	ديانة ومذهب
Configurations discursive	تشكّلات – تمظهرات خطابية
Connotation	إيحاء

Consentir	قبول وموافقة
Contamination	تلويث النص
Contexte	سياق
Contrainte	إرغام – إكراه
Corpus	مدونة – متن
Corrélation	تعالق – ترابط
Courbe	منحنى
Croyance	اعتقاد
D	
Décharge	تفريغ
Décentrement	لا تمركز
Décodage	فكّ السنن
Déconstruction	تفكيك
Déduction	استنباط
Démarche	نهج – طريقة
Démolition	هدم
Dénotation	تقرير– تعيين
Déracinement	استئصال
Dérivation	اشتقاق
Derive	متاهة – انحراف
Désamorcer	تعطيل– نزع فتيل

Désordre	لا نظام – فوضى
Différence	اختلاف
Différenciation	تفاضل – تباين – تمايز
Discipline	مجال – مبحث
Discontnuité	انفصال
Discours	خطاب
Dissimilarité	تباين
Dynamique	حركي– ديناميي
dysphorique	شعور دال على الانقباض والحزن
E	
Ecart	انزياح
Effet	أثر
Emotif	عاطفي – وجداني
Enchâssement	تضمين
Engagement	التزام
Engendrement	توليد
Enquete	تحقيق – استقصاء
Euphorie	شعور دال على السرور والانشراح
Etre	الكينونة
Ethnique	عرقي – إثني
Ethique	إثيقي – أخلاقي

Evangélique	إنجيلي
Evocation Symbolique	اشتثارة رمزية
Evidence	بداهة
exclusivisme	نزعة إقصائية
Explication	تفسير
Explicite	ظاهر – صريح
Extrémisme	نزعة تطرفية
Extrinsèque	خارجية
F	
Fragments	أجزاء – شذرات
Fixation	تثبيت
Fixisme	نزعة وثوقية – ثباتية
Fideles	الأوفياء
Figée	مسكوك
Finalité	غائية – غاية
Finitude	نهائية – محدودية
Fini	متناه – نهائي
Flou	غامض – ضبابي
Fonctionnement	اشتغال
Fondement	أصل – أساس
Fondamentalisme	أصولية

Forme	شكل
G	
Génération	توليد
Gendre	جندر – مرتبط بالنوع
Gestuel	حركي - إشاري
Glissement	انزلاق
Grille	شبكة
H	
Habitus	العادة
Herméneutique	تأويلية - تأويليات
Harmonie	تناغم
Hétérogène	غير متجانس
I	
Icone	أيقونة
Identique	مطابق
Imaginaire	مخيال
Immanence	محايثة
Implicite	مضمر- ضمني
Induction	استقراء
Indice	أمارة
Inférence	استدلال
Infini	لامتناهي

Insertion	إدراج – إدماج
Irrégularité	شاذ عن القاعدة – غير منتظم
Intégration	إدماج
Intégrisme	تطرف
Intelligible	مدرك – بين – معقول
Intention	قصد
Interprétabilité	تأوّلية
Interprétance	تأوّل
Interprétation	تأويل
Interpretant	مؤوّل
Isotopie	تناظر
Itérabilité	تكرارية
Itération	تكرار
L	
Lecture littérale	قراءة حرفية
Lexicographie	صناعة قاموسية
M	
Manifestation	تمظهر
Matériel	مادة
Matrice	مصفوفة
Mécanisation	مكننة
Mécanisme	آلية – ميكانيزم

Médias	وسائط
Médiateur	وسيط
Message	رسالة – خطاب
Meta sémiotique	سميائيات واصفة
Micro communication	توال محدود
Mode	صيغة
Motivation	تعليل
Mutuel	متبادل
N	
Négativité	نةعة سلبية
Nouveauté	جدة – حداثة
Numérique	رقمي – عددي
O	
Objet	موضوع
Objet dynamique	موضوع ديناميكي
Objet immédiat	موضوع مباشر
Occurrence	ورود
Omniprésence	حضور كلي
Opposition	تقابل – تعارض
Ordre	ترتيب – نظام
Originalité	أصالة
P	

Paradoxal	مفارق
Parallélisme	تواز – موزانة
Parole	كلام
Parcours interprétatif	مسير تأويلي
Participation	مشاركة
Perception	إدراك
Performatif	إنجازي وأدائي
Peripheries	ضواحي
perspective	منظور
persuasive	إقناعي
Pertinence	ملاءمة – مناسبة – ورود
Phénoménologie	ظاهراتية
Plan d'expression	مستوى التعبير
Plan de contenu	مستوى المحتوى
Potentialités	احتمالات كامنة
Prédéterminant	محدَّد سلفا
Presence	حضور
Présupposition	اقتضاء – افتراض مسبق
procès	الإجراء
Processus Interprétatif	سيرورة تأويلية
Productivité	إنتاجية

R	
Radicalisation	تأصيل
Radicalisme	جذرية
Récit	حكي
Reconstruction	إعادة البناء
Référence	إحالة
Référenciation	إحالة مرجعية
Référent	مرجع
Régularité	انتظام
Relationnel	علائقي
Religiosité	تديّن – خاصية دينية
Religiosité populaire	تديّن شعبي
Répétition	تكرار
Réplique	نسخة
Représentions	تمثلات
Represetamen	ماثول
Réseu	شبكة
Révélation	وحي
S	
Sacré	مقدس – قدسي
Saillance	بروز
Saillant	بارز

Sarcasme	تهكّم
Savoir partagé	معرفة مشتركة
Sélection	انتقاء
Sème	معنم
Semiosis	سميوزيس
Sémiosphere	سمياء الكون
Sémiotique	سميائيات – سميائي
Sémique	معنمي
Sens	معنى
Sens apparent	معنى ظاهر
Sens caché	معنى باطن
série	متوالية – سلسلة
Signe	علامة
Signifiance	تدليل
Signification	دلالة
Similitude	مشابهة
Sphère laïque	كون علماني
Stigmatisation	استهجان وازدراء
Structuration	بنينة
Symbole	رمز
Symbolisme	رمزية

Symétrie	تماثل – تناظر
système	نسق – نظام
T	
Theologie	التيولوجيا – اللاهوت
Temporisation	تأجيل
Temps	زمن
Tendence	ميل – نزوع
Tension	توثر
Topic	محوري – موضع
topologique	مكاني – موضعي
totalité	كلية
Trace	أثر
Transsubstantiation	تحول – حلول
Transcendental	متعالي
Transfert du sens	نقل المعنى
Type	نمط
U	
Unités narratives	وحدات سردية
Univers Abstrait	كون مجرّد
Univers axiologique	كون قيمي
Univers Concret	كون محسوس
Univocité	أحادية المعنى

Utopie	يوطوبيا- حلم مثالي
Utilisation	استعمال
V	
Valeur	قيمة
variable	متغير
Vibrant	مهتز – مرتج
Violation	خرق – انتهاك
Virtuel	مفترض

فهرس الموضوعات

شكر خاص.....5

شكر.....7

مقدمة المترجم.....9

مقدمة خاصة بالترجمة العربية.....16

شكر.....20

أسئلة الانطلاق وصعوبات التطور (الاستمرار) 21

تحليل معجمي ودلالي.....26

إحالات بيبليوغرافية.....31

الأصولية باعتبارها شكلا للحياة.....48

سميائيات كونيل.....65

سميائيات البلاغة الجهادية.....74

استنتاجات.....86

مسرد مصطلحي.....90

فهرس الموضوعات.....104

كثيرا ما تحضر الأصولية في الخطاب الإعلامي باعتبارها عنصرا أساسيا في المشهد الاجتماعي والثقافي والسياسي وحتى العسكري المعاصر. ولكن ما هي، بحقّ، الأصولية الدينية؟ كيف نميز خطابا أصوليا؟ من أين يستمد هذا الخطاب قوته التواصلية التي صار بفضلها خطابا متداولا بصورة كونية خاصة في الأنترنيت ومواقع *التواصل الاجتماعي*؟

لفهم الطبيعة العميقة للأصولية الدينية، يلزمنا دراسة ليس فقط ما تقوله ولكن أيضا وبشكل أخص كيف تقوله، أعني بلاغتها في القول وطريقتها في إثارة متخيل وفي تصنيفها الخير والشر والحلفاء والأعداء والأوفياء والخونة.

وبالإضافة إلى ذلك، ومن خلال تحليلنا لاستراتيجيات التواصل لدى الأصوليات الدينية، نستطيع ربما فهم أنها تمتلك جميعها- رغم اختلافاتها في اللغة والدين، والعصر، والوسط ووسائل التعبير- شبها عائليا، ومنظورا خاصا حول معنى اللغة، والعالم والحياة.

إننا إذن نلجأ إلى السميائيات، باعتبارها علما للدلالة والتواصل، لكي نصف بشكل دقيق الصيغ الإقناعية للأصولية المعاصرة.

ماسيموليوني

المؤلف

ماسيو ليوني أستاذ السميائيات بجامعة توران

طالب سابق بالمدرسة العليا للأساتذة

دكتوراه في العلوم الدينية بالمدرسة التطبيقية للدراسات العليا بالسربون

أستاذ زائر بجامعات بيركلي وميلبورن وطورنطو وباريس الرابعة والسربون والمدرسة العليا للأساتذة ب ليون وكيوطو.

المترجم

عبد الله بريمي

أستاذ السميائيات والتأويليات

جامعة مولاي إسماعيل- مكناس

الكلية المتعددة التخصصات الرشيدية